خطوة خطوة من الألف إلى الياء

البحث

حَسبَ العالِم ونَسبه

الاستاذ الدكتور
عبدالرحمن بن عبدالله حجر

عبدالرحمن عبدالله محمد حجر، ١٤٣٧هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

حجر، عبدالرحمن عبدالله محمد
خطوة خطوة من الألف إلى الياء:
البحث حسب العالم ونسبه/ عبد الرحمن عبدالله حجر
الرياض، ١٤٣٦هـ
١٦٨ص، ..سم
ردمك:٧-٠٣١٤-٠٢-٦٠٣-٩٧٨

١- طرق البحث أ. العنوان
ديوي ٠٠١،٤٢ ١٤٣٧/٢٩٣٧

رقم الإيداع: ١٤٣٧/٢٩٣٧
ردمك: ٧-٠٣١٤-٠٢-٦٠٣-٩٧٨

إهـــــداء

أهدي هذا الكتاب إلى ابنتي الغالية (جود)، التي تعلَّمْتُ منها الكثيرَ والكثيرَ، ولعل أهمَّ ما تعلَّمتُ منها هو التفكير والتشكيك في كلِّ شيءٍ، والتساؤُل والبحث والاكتِشاف والتحقُّق والنِّقاش.

وهو إهداء أيضاً لكلِّ بناتي وأبنائي الصادقين الباحثين عن الحقيقة.

المحتوى

المقدمة ٨

الفصل الأول (تشويق)

تاريخ مشرِّف ١٢

لماذا نبحث؟ ١٥

الاحتلال الفكري ١٨

الحسب والنسب ٢١

الإنسان عدوٌّ ما يجهل ٢٤

يداي أوكتا ٢٧

أعمى التكحيلة ٣٠

غاية الوسيلة ٣٦

الفصل الثاني (نصائح)

العصف الذهني ٣٩

شمس أمس ٤٢

السائل الشوكي CSF ٤٦

الدعم المالي ٤٩
الدورات البحثية ٥٣
براءة الاختراع ٥٦
الصبر مفتاح النشر ٥٩
التصنيف العفيف ٦٢

الفصل الثالث (وقفات)

رسبوني ٦٥
هاتوا بُرهانكم ٦٨
بينة المدعي ٧١
حقائق لسوابق ٧٣
الاقتران بالفئران ٧٧
مجلس المؤسسة للأبحاث IRB ٨٠
السرقة العلمية Plagiarism ٨٤

الفصل الرابع (الخطوات)

فكرة للزواج ٨٧
الفرضية المُرضية ٩٢

السؤال المجاب ٩٥
قواعد البيانات ٩٨
تجميع الكلاكيع ١٠١

الفصل الخامس (التأليف)

العنوان ١٠٤
الاعتراف فضيلة ١٠٦
ملخص البحث ١٠٨
المقدِّمة ١١٠
طريقة التشغيل ١١٣
تصميم البحث ١١٥
النتيجة ١١٨
النِّقاش ١٢٠
الخاتمة ١٢٢
الامتنان أمانٌ ١٢٤
المراجع والمواجع ١٢٦
الجداول والأشكال ١٢٩

الفصل السادس (النشر)

المجلة والمذلة	١٣١
قوالب المقالِب	١٣٤
التنقيح والتصحيح	١٣٧
مراجعة النظير Peer Review	١٤٠
سحب البحث	١٤٣
التسجيل	١٤٦
صورة بانورامية	١٤٨
المؤتمرات	١٥١
التقديم الجميل	١٥٤
الجمعيات العلمية	١٥٩
التعريب والتعذيب	١٦٢

مقدمة

تُعَدُّ الأبحاثُ أحدَ المعايير الأساسيَّة للتقدُّم والرُّقي بين الأمم، ولم تَعُدْ مِن الرفاهية ولا التسْلِيَة، بل هي العمودُ الفِقَري للتعليم العالي، ومنها تظهر الأفكار وتُدرس، وتُراقَب المشاريعُ وتُقَيَّمُ، بل بها تُرْسَم الإستراتيجيات وتُخَطَّط بالوثوق بحقائق جلية لا تَتَحَلَّل، وعلى دعائم من الشفافية قلَّما تَتَزَلْزَل.

فكرتُ طويلاً وترددتُ كثيراً في أنْ أخُطَّ أول حرفٍ في هذا الكتاب، فهنالك مَن هو أفضلُ مِنِّي علماً، وأخبرُ مني بحثاً، وأثرى مني وقتاً، وهنالك المراجعُ الكثيرة باللغة الإنجليزية، ومنها ما تَمَّ تعْريبُه، فهل سيجد هذا الكتابُ مَنْ يَسْتَلِذُّ به، أو حتى يستطعمه؟

بدأتُ بهذه المقدمة على غير العادة في تأليفي للكتُب، فغالباً ما ينتهي التأليفُ عندي بكتابة المقدِّمة؛ أضَعُ فيها عُصارة ما يحتويه الكتابُ، إلا أنَّ هذا الكتابَ بدأتُ فيه بالمقدمةِ لكي أشجعَ نفسي على مُواصَلة الكتابة، وأسْتَشْرِف النهاية، فلربما يرى النور يوماً، ويكون أحد الكتب التي ينفع اللهُ بها أبنائي الباحثين، ومِنْ ثَمَّ مراراً وتَكْراراً أعود لقراءة المقدمة، وفي كل مرة أمسح حرفاً، وأضيف كلمة!

هذا الكتابُ سيكون كتاباً عفَويّاً ارتجاليّاً قصصيّاً في أغلَبِه، وربما كتاب منهجيٌّ مُحْكَمٌ ومدقَّقٌ؛ ليكون مقررا ومرْجِعاً للدراسات العليا، وأتوقع أنني قادرٌ على إتمام هذا العمل الشاقِّ قريباً لأهميته، ولثقتي الكبيرة في دعم الزملاء والقراء، والذين أحببتُ أن يكونَ هذا الكتابُ جاذباً لهم بقَدْر ما أحببتُ أن يكونَ مُبَسطاً ومُشوقاً لمسيرة بحثٍ بدأتْ

مِن معيدٍ وانتهتْ بأستاذ دكتور في فترة وجيزةٍ، كانت مجال تساؤلٍ للقريب قبل البعيد!

في هذا الكتابِ تلاقُح العديد مِن التجارب في التأليف لديَّ، ففي كتاب: (تعلم طب الأنف والأذن والحنجرة بحل المشاكل) فضَّلتُ أن أبدأَ المقال بقصة واقعيةٍ مررتُ بها، نسْتَقي منها العبرةَ، ومن كتاب: (خاتمة ابن حجر) جعلتُ ما كُتب يُمكن تطبيقه بسهولة في مجتمعاتنا، وفي كتاب: (كندا التقدُّم إلى الوراء) ذكرتُ الحياة والقوانين الجديدة وطرُق التعايش معها، وفي كتاب: (اختلاف الأسنان لا يُفسد للود قضية) كان لديَّ رصيد لُغويٌّ مكَّنني مِن التواصُل مع القارئ بلغة القرآن، وفي كتاب: (حياتي في القوقعة) أخرجتُ المشاعر والأحاسيسَ الصادقةَ لتعطي الروح لهذا الجسد.

ليس هذا الكتابُ مجالَ تباهٍ وافتخارٍ والعياذ بالله، ولكنه كتابُ مغامرة تكللتْ بالنجاح، وقابلة للاستنساخ، ومحفزة للأحبة والأصدقاء؛ فالمؤلفُ لم يكن الأول على دفعته، ولم يكن المتفوقَ على أصدقائه، ولم يكن المحظوظَ بين أقرانه، ولربما كانت الإخفاقاتُ وقودَهُ ونارَهُ، مررتُ بالعديد من التجارب، وسمعتُ الكثير من الأحبة، وأحببتُ أن تصلَ المعلومة لك أخي القارئ بأسلوبٍ قصصيّ يشوق على القراءة، ويسهل المراجعة، ويُبَرّر الأحكام واللوائح في البحث؛ لتبدوَ منطقيةً ومقنعةً، وليستْ تكبيلاً وتعقيداً.

هذا الكتابُ هو صيدٌ لخواطرَ تظهر قبل النوم، وأثناء قيادة السيارة، ووسط الاجتماعات، تلقَّفها هاتفي بالتسجيل الصوتي والتصوير المرئي لفكرة قد وجدت النور، وسرب طار بالسحور.

قد تُلاحِظ أخي القارئ تكرُّراً للمواضيع، وذلك للتروية والتشبيع، مع تحليتِه بشيءٍ مِنَ السجع الذي يُفَكِّك الملَل الفظيع، ويوقد العزمَ والهمة لعقلٍ قد يضيع، في همٍّ وجهدٍ وتداخل فظيع، كما يعصرني الألم ويسعدني الأمل خوفاً مِن أن يتمَّ اقتطاع الكلام من السياق أو الانسياق خلف تتبُّع العثرات والأخطاء، فهذا ليس كتاباً مُحْكماً ولا مُحَكّماً، إنما صبابة مشتاق مهيم ولهان بأهله وبلده، يَتَطَلَّع أن يراهم في أعلى قمة.

وهنا هَمْسَةٌ للطبيب المبتدئ أُذَكِّرُه أنَّ الأطباء بشرٌ، وبينهم مِن الغيرة والتحدي ما لغيْرِهم، فترى البعضَ منهم يحارب ليحصدَ شُهرة أكبر، أو يتربع على منصبٍ أعلى، أو يكون أكثر مِن غيره ثراءً، إلَّا أن الأطباء الباحثين ينظرون لهذه الأمور بعين الاستنقاص، ويَتَرَفَّعون عن الخصومات، ويُرَجِّبون بالمنافسين والمشككين وحتى الحاقدين، بهم يستلهم الباحث الحقيقة، أما مجال الإدارة والشهرة والربح المالي فهو كعنق الزجاجة كلما ارتفع الإنسان فيها ازداد اختناقاً واعتصاراً مع غيره، بينما الأبحاث كالفضاءِ، كلما ارتقى الإنسانُ فيه ازداد رحابةً وتفهماً، وحريةً وسعادةً وافتخاراً بهذا الحسب والنسب، بقدْر ما سيكون مستصغراً ومستنقصاً للتكبيل في كرسي دوار.

تذكر أن العالم الباحثَ قدوة المجتمع، ومضرب المثل، ومتطلع الجميع حتى الوزراء والأمراء والملوك، فلا يعين الشيطان على إخوته بالتعالي والتكبر والتباهي، ولا بالتصنُّع والتمييع والتضرُّع؛ يُرْوَى عن عليٍّ كرَّم اللهُ وَجْهَهُ: (إذا رأيتَ العلماء على أبواب الملوك، فقل: بِئْس الملوك والعلماء، وإذا رأيتَ الملوك على أبواب العلماء، فقل: نعم الملوك والعلماء)!

ما زال البعضُ ينظر إلى الأبحاث وكأنها وجبة شامزة، لا طعم لها

ولا رائحة، لا سهلة فترتقى ولا سمينة فتُنتقل، مليئة بالمخاطر، ولا تقبل سوى المحترفين، ويبقى الهواة لها متفرجين، والمغامرة فيها نهاية الاستمتاع والتلذذ برغد الحياة، فأغلب الباحثين مُفْلسين مُتَقَوْقِعين في زنزاناتهم مؤبدين، وما عسى الكاتب أن يزيدَ على كلمات تشرشل: «ليس لديَّ ما أُقَدِّمه سوى الدماء، والكدح، والدموع، والعرق»! هذا ما وضعتُه نصب عيني، وكُلِّي أمل أن يكون هذا الكتاب وَقُوداً للشباب لتغيير هذه الفكرة عن الأبحاث.

يحتوي الكتابُ على عدة فصولٍ؛ يناقش الأول منها التشويق للأبحاث مع بعض التاريخ المشرِّف للعرب، وما تقوم عليه الأمم حاليّاً، وبعض التجارب التي عصفتْ بالمؤلف في بداياته، والفصل الثاني فيه العديد مِن النصائح لِمَنْ يوَدُّ أن يستمتعَ بالبحث، والفصل الثالث يحتوي على وقفاتٍ مهمة ينصح بالتعرف عليها مسبقاً، والفصل الرابع يرسم الخطوات الأولى، والفصل الخامس يشرح التأليف وفقراته، أما الفصل السادس فيختم الكتاب بالنشر للمخطوطة.

وفي الختام يطيب لي أن أشكر كرسي الأمير سلطان لأبحاث الإعاقة السمعية وزراعة السماعات على تبنيه ودعمه لهذا الكتاب، وأسأل اللهَ العليَّ القديرَ أن يرزقني شكرَ نعمته، وأن يجعل هذا الكتاب معيناً لأبنائي وأحبتي الباحثين في الاستمتاع بعمل الأبحاث، هذا العمل الراقي والشريف والتطوعي لخدمة البشرية جمعاء، وأن لاّيحرمني أجر الداعي إلى الخير.

زيورخ
٢٠ نوفمبر ٢٠١٥

الـفـصـل الأول (تـشـويـق)

تــاريــخ مــشــرِّف

عندما كنتُ في كندا قدَّم أحدُ المتدرِّبين محاضرةً قيِّمةً عن تاريخ الطب عبر العصور، وقال: (مع الاعتذار لكل العرب الحضور لَم أجِدْ أي شيء في المراجع يقول: إن العصر العربي قدَّم أي شيء سوى ترجمة وتبني أفكار من قبله)!

اشتطتُ غضباً، وحاولتُ أن أردَّ عليه، لكني لم أجدْ في جعبتي أي شيء يُمَكِّنني منه، وكأني أبحث بمفردي على الصندوق الأسود لطائرة مُحَطَّمة في محيط متلاطم الأمواج، ولستُ أحسن السباحة، فآثرتُ الصمت على الرد عليه لأبرد شيئاً مِن مشاعري.

نعم وألف نعم، العربُ المسلمون هم مَن وَضَع أسس البحث العلمي الحديث الذي يقوم على الاستقراء والتجربة لاكتشاف المجهول، بدلاً مِن إعطاء البراهين على حقائقَ معروفةٍ بعين اليقين في مدرسة اليونانيين، كنت وما زلتُ حزيناً جدّاً على عدم تعليمنا في دولنا أي تاريخ للحضارة العربية والإسلامية ورجالاتها في مجال الطب، مع أنَّ الطِّب يدرس في الدول العربية في ستة سنوات بمعدل ٢٦٠ ساعة مُعْتَمَدة، منها ساعات للجامعة، وساعات متطلبة في العلوم الأساسية، وساعات للطب أساسية وسريرية لا تجد فيها أي إشارة لتاريخنا المشَرِّف!

كان العهدُ السابقُ للمسلمين يقوم على الفلسفة المُجَرَّدة، ويقسم العلم إلى الإلهيات والطبيعيات والرياضيات، فعِلْمُ الإلهيات يُعنى بما خلف الطبيعة، وعلم الطبيعيات يُعنى بالأشياء المحسوسة والمشاهَدة والملموسة، أما علمُ الرياضيات فيبحث في الأرقام والمعادلات، وجاء الإسلام وأوضح كلَّ ما يحتاج الكائنُ البشريُّ مِن معرفةٍ لأمور الحياة والممات، وما يحتاج المعبود من غذاء للروح، أما علمُ الطبيعيات فقد أَسْهَمُوا فيه من جانبين هما: المنهجية العلمية والتي بِدَوْرِها أَثْرَتِ المحتوى العلمي من تجديدٍ وتطويرٍ واختراع، أما علم الرياضيات فكانت ابتكاراتهم وما زالتْ إلى الآن تدرس في أفضل الجامعات، مع اختراع فروعٍ جديدة في هذا العلم؛ مثل: اللوغاريتمات والجبر، ناهيك عن الصفر.

أعطى المسلمون علمَ الطبيعيات – بما في ذلك الطب – شيئاً من الاستقلالية عن العلوم الأخرى، ونزعوا عنه خزعبلات الكفر والشرك بالله، بل وزادوا عليه الكثير من الفروع والأقسام، مع إبقاء ركائزه الموثقة بالعلوم الأخرى، بل أَثْبَتَ المسلمون عدم تعارض الدين مع المعرفة التي حاربتْها الكنيسةُ لعدة قرون، وكان عهداً جديداً يَنْبَنِي على تكامل هذه العلوم مع بعضها البعض، وعدم تعارضها مع استقلالها بفكرٍ مثمر قائم على البحث العلمي الذي ما لبث أن كان مُنطلقاً للعديد من الإبداعات حتى وقتنا الحاضر.

ويتميز البحثُ العلمي عن غيره مِن سبُل المعرفة بالتقصِّي، وتطوير العلم بكثيرٍ مِن المسؤولية والمصداقية القائمة على الملاحَظة والتجرد الكامل مع اختبار للفرضيَّة، وذكر الحقائق كاملة، ومناظرتها لما

يشابهها من قول سابق، هذا التأصيلُ للبحث العلمي التجريبي وضَع قواعده جابر بن حيان؛ حيث قال: (يجب أن تعلم أنا نذكر في هذه الكتب خواصَّ ما رأينا فقط، دون ما سمعنا أو قيل لنا أو قرأنا، بعد أن امتحناه وجرَّبْناه، فما صح أوْرَدْناه، وما بطل رفضناه، وما استخرجناه نحن أيضاً وقايسناه على أقوال هؤلاء القوم)، ومن المحزنِ والمؤسف أنَّ هذا التاريخ المشَرّف لا يعرفه العديدُ مِن العرب والمسلمين، نعم المسلمون هم مَنْ أنْقَذَ البشرية من الخُزَعْبلات والخرافات التي اضْمَحَلَّتْ مع بُزُوغ عصر المعرفة البحثية بكلِّ ما تحمل من ثروة للبشرية، وعلى أسُسِها قامت الصناعةُ والمعرفةُ.

هذه الكلماتُ التي اختزلها ابنُ حيَّان في سطرين فجَّرَتْ ينابيع الاكتشافات في البحث العلمي، والتي سطرت القوانين، وطورت الفَرْضيَّات، ونشرت النظريات، وحققت التنبؤات بدرجةٍ عالية من الدقة، وليس ما يدعيه الغربُ أن هذه الثورة قامتْ في منتصف القرن التاسعَ عشرَ على يد إرنست وبر Ernest Weber بعد محاولته قياس سلوك البشر، والتي يُعزى إليه تأسيس معالِم البحث العلمي.

وكلّي أمل أن ينبَري أحدُ المخلصين ويُسَجِّل الثورة البحثية التي ابتكرها العربُ المسلمون، وما نتج عنها من اكتشافاتٍ موثقة غيَّرَتْ مجرى التاريخ، ويكون مرجعاً دراسيّاً في جميع كليات الطب تحفظ للمسلمين حقوقهم، وتبعث روح الابتكار والتطوير؛ اقتداءً بعلماء أجلاء بخَسَهم الغربُ أبسط حقوقهم.

لـمـاذا نـبـحـث؟

الجيلُ المُخَضْرَمُ أمثالي كان يوماً من الأيام بإحدى يديه جوال نوكيا، والأخرى كاميرا كوداك، قد تكون هذه الأسماء غريبةً للقارئ، لكنها مَحْفورة في ذاكرة الناس الطيبين، كانت الطبقاتُ المجتمعية مُقَسَّمَة على مستوى التواصل؛ فالجوالُ محصور في يد الطبقات العليا، تليها طبقة البيجر، ومن ثم طبقة الثابت، فطبقة البريد، أما التصوير فكان محصوراً في الأستديوهات ولمن يملك كاميرا كوداك، وتحميض الأفلام يستغرق بضعة أيام!

تربَّعتْ شركة كوداك الأمريكية متعدِّدة الجنسيات على عرش الشركات العالمية لصناعة التصوير لمدة قرن من الزمن، بل وحصدتْ ما يعادل ٩٠٪ من السوق الأمريكية، ولكنها رفضتْ فكرة الصوَر الرقمية، ومن ثم انتهتْ وأفلست في عام ٢٠١٢، وطلبت الحماية القانونية، وتبَرَّأَتْ من جميع فروعها غير الأمريكية، وكان السببُ في غاية البساطة هو: عدم إيمانها بأهمية البحث والتجديد والابتكار، أما شركة نوكيا الفنلندية ذات المائة ألف موظف في ١٢٠ دولة وعوائد مالية تجاوزتْ ٣٠ مليار يورو سنويّاً، فقد تأخرتْ في قبول فكرة الجوالات الذكية، فبِيعَتْ بثمنٍ بخس لشركة مايكروسوفت!

الذاكرةُ البشرية حُبلى بالعديد من الإفلاسات على مختلف الأصعدة؛ فمنها: الثقافية، والصناعية، والإعلامية، والزراعية، بل حتى الدول والحضارات أفْلَسَتْ، والإمبراطوريات تهاوتْ، وكان العاملُ المشتَرَكُ بينها جميعاً هو عدم اكتشافها، ومن ثم حلها للمشاكل بطريقةٍ علميةٍ

مُوثَّقة وشفَّافة؛ لهذا لا تستغرب المبالغ الطائلة مِن شراء المؤسسات الصغيرة المنافسة، فهذا لكونها قادرةً على البحث بشكل أسرع وأجود مِن مؤسسات عملاقة تصلبتْ بالبيروقراطية.

كانت البشريةُ تبحث في أفكار للزاد والمأوى، ومن ثم بحثتْ عن الراحة والعمران، يليه التوسع والحماية، فالغزو والاستعمار والاستعباد، لكن عندما انتهى المطافُ بالتقاتل الكبير والتضحيات الجِسام، فطِنَتِ البشريةُ إلى فكرة التعايُش والكسب المشترك، بل حتى الاستثمار في الاختلاف للرُّقي بالأفكار، والوصول لأفضل النتائج.

نحن الآن في عصر المعرفة بعد أن انقرض عصرُ الزراعة والرعي والصناعة والإمبراطوريات والمماليك، لقد تَمَكَّنَت البشريةُ جَمعاء مِن الوُصُول إلى حرياتها الجسدية والفكرية والرُّوحية، والحصول على مستلزماتها الجسدية من معيشةٍ وسكنٍ وتنقُّل، واحتياجاته الروحية مِن عبادةٍ وأمنٍ وتعايُش بسهولة ويسر؛ لهذا تَمَكَّنَت البشَريَّةُ مِن استغلال وقتها وقوتها في ثالث الحريات وهي الفكر؛ لهذا صنع الإسلامُ ثورةً غيَّرَتْ مجرى التاريخ البشري بأن أشبعت الروح والجسد، وأطلقت العنان للفكر بعد أنْ أرشَدَتْه للطريق الصحيح.

كان الحاكمُ والآمر الناهي هو القوي جسديّاً والمسيطر على الأرض والماء، أمَّا الآن فأصبح بمَقْدورِ أي إنسانٍ أن يكونَ الحاكم ولو كان مقعداً إذا كان قويّاً عقليّاً (تذكَّرْ ستيفن هوكينق ملك الفيزياء حاليّاً)، وأصبحت الدول تحمي ممتلكاتها الفكرية، بل وأصبح الاستعمارُ في هذا القرن معرفيّاً، فمَنْ يتوصَّل إلى المعرفة مسبقاً يمتلك أعلى الأسهم في مجلس الإدارة العالمي، بل وحتى حق النقض (الفيتو) لحماية

مَصالحه وممتلكاته الفِكرية.

كانت الأبحاثُ سابقاً في الدول المتقدِّمة تقوم على حلِّ المشاكل لديها، وبعد أن ارتقتْ بالمعرفة بدأتْ في حلِّ المشاكل المستقبلية بنبوءات تُنير لها الطريق وترشدها ملاحيّاً بأفضل الخيارات المستقبلية، بل وصل بهم الحال إلى تقديم الحلول للدول النائمة (النامية) بما يخدم مصالحها وبمقابل كبير، وهنا تتَّضِح صورةُ الاستعمار الحقيقي في عصرنا الحالي، قال جواهر لال نهرو مهندس الهند الحديثة وأول رئيس وزراء وأحد مؤسسي حركة عدم الانحياز، بعد أنْ ناضل طويلاً ضد الاستعمار: (لأننا بلد فقيرٌ فلسنا نتحمَّل التغاضي عن إجراء البحوث).

الاحـــتـــلال الـــفـــكـــري

عَرضتُ صورةً للعالَم في إحدى محاضراتي للطلبة تُبَيِّن عدد الأبحاث الطبية المسجَّلة في موقع PubMed، والتي يُعول عليها تغيير الطب بأبحاث علمية موثقةٍ، وقد أظهر هذا الموقع أن أمريكا تتربَّع على عرش الأبحاث العلمية، ولكن بمقارنةٍ بسيطةٍ بين أمريكا وكندا اتَّضَح أنَّ عددَ الأبحاث في كندا للفرد تَفُوق ما يسجل للفرد الأمريكي، لكن الذي كان أكثر دهشةً هو وجود جزيرة متناهية الصغر أكثر تسجيلاً للأبحاث مِن جارتها العملاقة وهي الصين، والتي تفوقها ٦٠ مرة في عدد السكان، هذه الجزيرة هي (تايوان)، وسكانها يعانون من وصاية الصين عليهم، والصين تُعدُّ أكبر دول العالم سكاناً، وأقدمهم حضارة، وأكثرهم حصْداً للميداليات الذهبية في الأولمبياد.

عندما سألتُ الطلبة عمَّنْ يقِف مع استقلال تايوان عن الصين، كان التصويتُ بالإجماع، ما عدا طالباً قال: أتمنى أن تحتلَّ تايوان الصين، فهذا سَيُبقي كل الموروث التاريخي للصين ويجعلها أكثر فائدة لنفسها وللبشرية!

بعد ذلك انتقلتُ للشرق الأوسط في خريطة العالم البحثية، وإذا بمنطقةٍ داكنة الحمرة تُضاهي أمريكا، سجلت قيماً تفوق تايوان هي كيان محتل يدعى "إسرائيل"، تقع في منطقة ناصعة البياض هي الدول العربية، يُسجل الفرد الواحد في هذه المنطقة الداكنة ٢٥٠ ضعف الفرد في الدول العربية مجتمعة، وعندها سألت الطلبة: هل تتوقَّعون أن ساكني تايوان سيَقفون معنا عندما نُطالب بأرض فلسطين رجوعاً

للتاريخ وعدد السكان والميداليات البرونزية، بل حتى لوقفتنا المشرفة معهم؟!

لا أتوقَّع ذلك، وكل الخوف أن يقال: سنقف مع المحتل ليتوسع على أراضيكم، فوجودُهم أثمنُ للبشرية، بنفس مقياسكم لحلِّ قضية تايوان.

نعم تحتاج العقولُ أن تتحرَّر وتظهر وتُجادل وتحارب، وتستميت لتُخرج المحتل والمستعمر والمستبد والمتحكم بعقولها، قبل أن تُطالبَ بِخُروج المحتلِّ والمستوطن مِن أرضها، عندها سيقف العالمُ بأسْرِه مع هذه العُقول المتحرِّرة كما وقَف مع العديد مِن العُقول وساندها، بل حارب مِن أجْل استقطابها للعيش في أكْنافِه مُعَزَّزة مُكَرَّمة، وكما قيل (بتصرف):

إذا العَـــقْلُ يومــاً أراد الحــياة
فــلا بُدَّ أن يســـتجيبَ القَـــدَرْ

ومَـن لا يـــوَدُّ صُـــعود العلوم
يَعِــشْ أبَـــدَ الدَّهْــرِ وســط الحُفَرْ

هــو الكـونُ حَـيٌّ يُـحب الحـياة
ويـحـتَقِـرِ المَـيْت مـــهـــما كَـبِرْ

عندما تَستفيق العقولُ العربية مِن سُباتها أو تُبعث من مماتها، وتثمن عقل العالِم بما يوازي قدم اللاعب وحنجرة المغني ولسان المذيع، عندها سنعزف أول نغمة في أسماع العالم، بدلاً مِن أن نبقى نستمع لقَرْع نعالهم وهم عنا مُدْبِرُون!

الملامَـةُ هنـا لا تقف علـى الحكَّام ولا الحكومـات فـي الوطـن العربـي كما يدَّعي البعض، فهدفُهم شريف سامٍ، يطمحون إلى إسعاد شُعوبهم بما يرضي ربهم وهو ما تتطلع إليه هذه الشعوب، فإن كان ما يُسعد شُعوبهم الكرة والملاهي والحدائق والشواطئ لبت لهم رغباتهم، وإن كان سعادةُ شعوبها العلم والفكر والأبحاث حققتْ لهم ما يصبون إليه أُسْوَة بكلِّ حكومات العالم، نعم الشعبُ هو مَن يُحَدِّد أولوياته ويُقَرِّر مُستقبله.

الـحسـب والـنـسـب

منذ قُدومي مِن كندا وأنا أنصح الأطباء – وخاصَّة المتدربين – بخوض غمار الأبحاث والنشر العلمي؛ ليُكملوا عقد المعرفة، ولكي يَضمنوا لهم القبول في التخصصات الدقيقة، كانت أذن مِن طين والأخرى من عجين، وتذكرتُ أنَّ نوحاً ظلَّ يدعو قومه ألف سنة، فتصبرتُ واحتسبتُ، إلَّا أنَّ أحد الأطباء المتميزين طلَب مني أن أشفع له عند أحد الأساتذة الكنديين لقبوله في زمالة التخصص الدقيق، وعندما لم يقبلْه أرسلتُ له رسالة عتاب، لربما يرجع عن قراره، وقلتُ: لقد كنتُ أتوقَّع أنني على قدر كبير من الصداقة، ولن تردَّ لي طلباً، فأرسل لي السيرة الذاتية لمن حَظِي بالقبول، وقد كان لديه من الأبحاث ما يزيد عن الثلاثين، وقد نُشِرَتْ في أرقى المجلات، بينما صاحبي لديه حالة نادرة ما زالتْ في طَور الإعداد.

نعم أخي العزيز، مقياسُ القبول في الغرب هو ما قدَّمه الإنسان في حياته، فهذا حسَبُهُ ونسبه العالمي، ومنه يُعرف ما هو المؤمل منه في المستقبل، نعم ليس الفتى مَن قال: كان أستاذي، لكن الفتى من قال: هذا أنا!

كان درساً قاسياً لي، لكنها أصبحتْ سياستنا أيضاً في القبول في زمالة التخصص الدقيق لدينا، والتي بدأتْ في مَدِّ ظلالها على زمالاتٍ أخرى، بل والعديد من الوظائف في المجال الصِّحِّي، مما حدَا بالعديد من الطلبة إلى الدُّخول مبكِّراً لهذا المجال.

أصبح الآن بِمَقْدور المتقدِّم لأي وظيفة طبية أو القبول في الزمالات

معرفة نقاط التقييم وثقلها، ولم يَعُدْ للتزكية ولا القرابة ولا المحسوبية دورٌ يُذْكَر في الحصول على شيءٍ يميز الفاشل على غيره، ما عدا بعض الدول النائية والمجتمعات المتخلفة، والتي يرتئي الإنسان الفاضل التقديم عليها.

تأمينُ المستقبل حاليّاً لم يَعُدْ في حصد أعلى الدرجات، ولا التخرُّج مِن أرقى الجامعات، ولا تزْكية أرفع المناصب، ولكن أصبح المستقبلُ حاليّاً في التميُّز في البحث والنشر وبراءات الاختراعات، وإثراء البشَريَّة بالابتكارات والتقديم في المؤتمرات، فقد أصبحت الفُرَص التقليدية محدودةً، والدخل المادي زهيداً، ولم يَعُد الطبيب العام يحظى بأي تميزٍ أو تكريم، فلم يَعُدْ في عيون الناس عيباً، كنقْص القادرين على التمام.

ستيف جوبز لَم ينعم بحضن أمِّه الدافئ، وتبرأ هو من والده الحقيقي (العربي المسلم) و لم يكملْ دراسته الجامعية لفقره، وباع ما يملك ليؤسِّس شركته التي طرد منها، وفشل في إنتاج حاسوب منافس لاختراعه الذي سلب منه، بل أفلستْ شركته، ومن ثم عُيِّن رئيساً تنفيذيّاً، وحطم أرقام جينس؛ حيث كان راتبُه دولاراً واحداً في السنة، وعلى المسرح قال للعالم: هأنذا أُجبر أغنى رجل في العالم أن يعترف لي بالفضل، بل اعترف العالمُ كله له بالفضل، ولم يَعُدْ بمقدور بشرٍ أن يعيش بعيداً عن أحد ابتكاراته؛ من جوالات، وحاسبات، وبرامج، أمنتْ مستقبله ومستقبل أحفاد أحفاده بعْدَ وفاته، بينما أكمل والده العملَ نادلاً في مطعم.

لم يَعُد البشرُ يخشون من الحاضر، بل يتطلَّعون دوماً لأفضل تأمين

لمستقبلهم ومستقبل أبنائهم، ومنهم مَن ذهَب إلى أحفاد الأحفاد الذين لن يتذكروا اسمه، إنَّ أفضل تأمين للمستقبل حالياً هو التوسُّع والرقي بالمعرفة والابتكار والتطوير، وتوريث هذا الفكر للأبناء؛ ليعيشوا حياة سعيدة هادفة بعقول مفعمة بالتفاؤل والفكر الهادف، وتنبض قلوبهم حياة ونشاطاً، وتبصر عيونهم أدق التفاصيل، وتتطلع لمستقبل مشرقٍ، وتتلمس أيديهم التميز، وتستشعر التباين في كل شيء مِن حولهم، وحينها سيُقدم الأب وابنته خِطبة المفكِّر والعالم والمكتَشِف والمتحدث ولو كان مُعدماً على المليونير الجاهل، وستتباهى الزوجةُ أن تكونَ خلفَ رجل عظيم مِن أن تكونَ أمام ذكر غني، لَم تَعُد القريةُ الصغيرة التي تعيش فيها البشَريَّة تقيم وزناً إضافيّاً للأعراق الخالدة، ولا سلالة الأباطرة والإمبراطوريات، ولا ملاك الأراضي والعقارات، ولا التجار ولا الصناع، ولا الإعلاميين، ولا الشعار، لم تعد تتباهى وتُقَدِّم وتُمَيِّز إلا المكتشفين والمطورين.

الإنسان عدوٌّ ما يجهل

وصلتُ إلى كندا في نهاية التسعينيات لكي أبدأ زمالة تخصُّص الأنف والأذن والحنجرة، وقد حرصتُ على أن أكونَ مبكراً في هذه المدينة؛ لكي أرتب المسكن والأثاث والمواصلات، وأنهي إجراءات الضمان الصِّحِّي، والعديد من الأمور التي لم أفضلْ أنْ تعيق مسيرتي الدراسية في بدايتها، خاصَّة كوني طبيباً، ومِن غير اللائق التغيُّب عن خدمة المرضى؛ لكي أبحث عن سيارةٍ أو أتابع خلف استمارة، كما حرصتُ على التعرُّف على أكبر عدد ممكن من المبتعثين، وكلي يقين أنني سأتعلم مِن كلِّ واحد منهم شيئاً جديداً؛ حيث إنَّ رصيدي المعرفي عن المدينة والتدريب يتأرْجَح حول درجة الصفر، فلم يكن هنالك إنترنت، ولم تكن هنالك قنوات فضائية، ولم تكن هنالك كتب تثقيفية.

كنت أول من وصل إلى مدينة مونتريال من المبتعثين عام ١٩٩٩، وبهذا كنتُ المبتعث المدلل لمن سبقني، فالكلُّ حريص على مَن يأتي من بعده ليُسلمه أمانة قدمها له مَن سبقه في مد يد العون والنصح، لقد كانتْ حفاوة الأنصار بالمهاجرين محبة لله وفي الله، لا يشوبها شائبة، ولا ينغصها نائبة.

كان النادي السعودي هو المسجد والمدرسة وصالة الأفراح وبيت الوالد الذي يجتمع فيه المبتعثون، فيتنفسون فيه الصعداء، ويخرجون ما بأنفسهم مِن فَرَحٍ وترح، ويتبادلون الخبرات ويتصارعون بالفكاهات، لكن وقت قدومي كان في نهاية السنة التدريبية لهم، والتي تزخر بالامتحانات وتقديم الأبحاث، ولَم يكن يمضي يوم إلا وبارك البعض

لأحدهم بالزمالة، أو ودعوا أحدهم بانتهاء البعثة، أو انتقاله لمدينة أخرى؛ ليكملَ التخصص الدقيق، كل هذا شَوَّقني لخوض غمار تجربة جديدة لا أعلم عنها أي شيءٍ.

لكن ما استغربتُ على المبتعثين – الذين لم يدخلوا الامتحان في هذه الفترة – حرصهم على الأبحاث، وتحدثهم عنها بين كل موضوع يُفْتَح للنقاش إن لم يكن النقاش بالكامل عن الأبحاث طوال هذا الاجتماع.

في بادئ الأمر كنتُ أرأف بهم، فالأجدرُ أن يكونَ جل اهتمامهم الشهادة والتخرج والرجوع للوطن بشيء يضمن لهم التوظيف، أو الترقية لرتبة أعلى، فما فائدة الأبحاث إذا رجع الإنسان بدون شهادة؟ لقد كانت هذه الفترة من العام هي يوم البحث الذي تقيمه كل التخصصات، وتُرْصَد له الجوائز والتكريم، ويقدِم فيه كل مبتعث حصاد عام كامل من تجربته في بحثٍ قام به.

لقد كنتُ كالأطرش في الزَّفَّة؛ لا أعلم ماذا؟ ولماذا كل هذا؟ وكنتُ أتجنب الاستماع لما يقولون، وكأنه شيء مخالفٌ للفطرة، ومستنقص للمعرفة وهدر للوقت، نعم تساءلتُ: لماذا يضيع المبتعث وقته الثمين في الأبحاث وينحرف عن نهل المعرفة، والتسلح بالمهارة ليرجع للوطن، وقد تحقق له ما ابتعث من أجْله وهي الشهادة؟! ولكن مع مرور الوقت أصبحتُ أتطلَّع لأنْ أكونَ مثلهم، فلم يسلمْ أحدهم من أسئلتي البسيطة، ومداخلتي البريئة، ودعائي له بالتوفيق والفوز بالجائزة.

كانت المبارَكات تنهال على مَن فاز بالأبحاث في تخصصه أكثر من المباركة لمن نجح في زمالته، أو أنْهَى بعثته، لقد كانت الشهادة مِن

المسلمات، وأما الفوز بجائزة الأبحاث فمن الكرامات، وكان التخرُّج مِن الزمالة إنجازاً يحقق للمبتعث بينما كانت الأبحاث إعجازاً يحقق للوطن، عندها أيقنت أن النجاح في متناول الجميع، ولكن الفلاح صعب المنال!

تشربتُ في هذه الفترة أهمية الأبحاث، بل تغيَّرتْ نظرتي بالكامل عن شيء لم أعرفه، وحرصتُ أن أقرأ عنه، وأتسلح به في بداية بعثتي، بل كنت أدعو له وأحرض عليه، ولم يكن لي أي شيء يذكر في حينها، فكان البعض يتندر بي، كيف أدعو لشيء لم أفقْه، ولم أخُضْ غماره؟! ولكني كنت متطلعاً في نهاية العام القادم وقد حققتُ شيئاً أُسعِد به أحبتي المبتعثين، وإن لم يكن لي فيها ناقة ولا جمل، بل كنت أعذر المبتعثين الجدد الذين أتوا من بعدي؛ فهم مرهقون بما انتهيت منه من تسجيل وشراء وتجهيز، ولم يحضروا تلك الأيام التي لم يكن يذكر فيها إلا الأبحاث والإنجازات والتميز والمباركات، فما لبثَت أن خبوت هذه النار في النادي، وبدأت دورة جديدة لمبتعثين يتلمسون خطواتهم الأولى في هذه المدينة، والكل حريص على أن يقدم لهم ما يستطيع من نصح وإرشاد، وإن كنتُ أنا المرجع الأول لهم، ولم أكن لأتركهم دون التحدث عن الأبحاث في كل شاردةٍ وواردةٍ.

يــداي أوكــتــا

كنتُ مناوباً في إحدى الليالي المظلمة، وإذا بي في غرفة الحوادث أقابل مريضاً قد أصيب بِجُرح غائر في البلعوم بعد حادث سيارة، لم أسمعْ بِمِثْل هذا في حياتي، فكيف بصدمة للوجه أن تؤدِّي إلى جرح غائر مثل هذا؟!

تصفحتُ محركات البحث فلم أجد إلا حالة واحدة قد شابهتها، فأخبرتُ الاستشاري المناوب عنها، وقد صاحبته في غرفة العمليات لنقفل هذا الجرح، فلم يرفع نَظَره إليَّ وقال: اكتبها لننشرها!

بقدر ما كنت سعيداً بهذه الحالة النادرة، وهذه الثقة العمياء في نظري مِن هذا الاستشاري الذي لا أعرفه ولا يعرفني، بقدْر ما كنتُ خائفاً وَجِلاً مِن تحطم هذه الأمواج العاتية في مخيلتي عن الأبحاث بصخرة كأداء لواقع مرير لا أُحْسِن فيه السباحة ولا الملاحة!

لم يكن جُرح هذا المريض الغائر في بُلعومه والذي منعه من الأكل والشرب والتحدث بأعمق من الجرح الذي أصابني ومنعني مثله من كل شيء، لكن هذا المريض لم نعلم كيف حدث له ما حدث، أمَّا أنا فيداي أوكتا وفاي نفخ!

استنفرت كل طاقتي في البحث والقراءة في هذا الموضوع؛ وإذ بي أجد مقالاً آخر عن هذه الحادثة استنجدتُ به في كتابة بحثي الأول، والذي يُعرف في الأبحاث بمصطلح تسجيل حالة: Case report، وهو أبسط الأشياء كتابةً، وأقلها جهداً، ولكنها في ذلك الوقت كانت كالجبل

الأشم فوق رأسي، كما أن هذا الاستشاري لم يَسلم مِن مراجعتي له بين الفينة والأخرى أخبره ما حققت من إنجازات وفتوحات في نظري، والتي لم يقابلها إلا بالابتسامة والتشجيع على الكتابة، دون أن يمد لي يد العون في إكمال المسيرة، أو يرمي لي طوق النجاة بفكرة بسيطةٍ، أو يحررني من هذه الأغلال ويكتب هو هذه المقالة.

مع تَكْرار الزيارة لهذا الاستشاري لعله يستأنف القرار، قال لي: لماذا لا تدخل معي في بحث آخر؟ لم أكن لأصدق ما يقول؛ فكيف به يثق بإنسانٍ مِن خارج تخصصه سيقضي معه بضعة أيام ويغادر، ولم يكمل ما طلب منه! لم يكن لساني قادراً على أن يرفض شيئاً من استشاري ولو بصيغة المشورة، فقد تعودت أن تكون حروف المختص أوامر في ثقافتي العسكرية، فكيف بي أمام استشاري يحمل أعلى الرتب؟ شيءٌ لا يقبل التفكير أو التردُّد أو الرد بغير كلمة واحدة: نعم.

نعم كلمة من ثلاثة أحرف، لكنها كانت تعني أنَّ المصائب لا تأتي فراداً، كنت أتوقع أن يذكر لي شروطه بعدم الإزعاج وعدم التأخير، وعدم المطالبة بأي مردودٍ، ولكنه لم يقل شيئاً، فكنت على يقين أنه حكم بالإعدام بعد حكم المؤبد الذي حلَّ بي عندما استعجلتُ الاستئناف.

قد يتقدم إليك أحد الاستشاريين بالخطبة البحثية، تذكر أنَّ هذا التزاوج سيعلن في وثائق المجلات، وقد يشاركك غيرك في هذا الاستشاري، وقد لا تحظى بالمساواة ولا العدل، لا تستعجل بالرد، واطلبْ فترة للتفكير، وقم بالبحث والتمحيص للفكرة وللاستشاري، ومن الأفضل

أن ترفضَ بالرد المؤدب للخاطب: (أريد أن أكمل دراستي، وأنا غير مستعجل على الزواج)، عن الرضوخ للطلب، وكأنه حكم القبيلة الذي لا يقبل الرفض لابن العم!

فتبعات البحث لا تَقِلُّ عن تبِعات الزواج؛ مِن التزام أخلاقيٍّ، وأدبيٍّ، وشرعيٍّ!

أعـمـى الـتـكـحـيـلـة

يقال بالعامية: (جاء يكحلها عماها)، هذا ما حدَث لي في أول تجربة لـي فـي الأبحـاث، فقد أنهيتُ تجميعَ كلِّ النتائـج وقراءة كل المراجع، وكتابة البحثين معاً لهذا الاستشاري، وأحببتُ أن أستشيرَ أحد الزملاء فيما كتبتُ، إلا أنه أشـار عليَّ بكتابة اسمي على هذا البحث كمؤلف أول، ثُم كتابـة اسم الاستشـاري ثانياً، وأخبرنـي أنَّ هذا مـا جَرَتْ بـه العـادةُ فـي كنـدا، وهـي تأكيـد أن المؤلف الأول يَحْمِل على عاتقه أكبر إسهامات البحث ومسؤولياته.

لـم تكن هذه النصيحـة مِن صديقـي تقبل الشكَّ، فجميـعُ مـا أشـار به عليَّ سابقاً كان صحيحاً، ولم أحبذ أن لا أنصاع له، فما زالت الثقافة العسكرية: «نفذ ثم اعترض»، لا تغيب عن مخيلتي، فقد تربَّيْنا عليها في كلية الطب!

ذهبـتُ للاستشـاري لأسَلِّمه هذين البحثين، إلا أننـي لم أجده، فطلبتُ مِن سكرتيرته أن تعطيه الأبحاث حال قدومه، وذهبتُ تُسابق خطواتي خفقان نبضاتـي، فلـم أتمنَّ مواجهتـه بمـا كتبتُ لعل الله أن يربط على قلبـه، ويكـون لـه مُتَّسـعٌ مـن الوقت ليمتـصَّ غضبـه، أو يجفف دموع الحزن وضحكات السخرية ممَّا يرى مِن إبداع من مبتدئ لم يمارسْ أو يتمرس على شيءٍ مشابهٍ.

لم تكن إلا دقائق حتى دقَّ الهاتف برقم سكرتاريته، كانتْ هذه الدقائق تمرُّ كالسنين العجاف الكافية لعرض مسلسل مكسيكي بمئات الحلقات الدرامية مِن مآسٍ وأحزانٍ وكانت مخيلتي حبلى بكل أنواع التُّهَم والتهديد والوعيد من هذا الاستشـاري، والذي سيتحول مِن حمل وديع إلى أسدٍ

ثائر له كل الحق فيما يقول ويفعل.

لقد تجاوزت في نظري كل الخطوط الحمراء والسوداء، فكيف يحق لي أن أكتبَ اسمي في هذا البحث، بل الأدهى والأَمَرُّ أن أكتبَ اسمي قبل اسم الاستشاري! هل هذا ما تعلمتُه في بلدي؟ هل رد المعروف وجزاء الإحسان لهذا الاستشاري هو السَّطْوُ على حقوقه؟

كانتْ مجريات الأحداث تؤكد كل هذه الظنون، فما هي إلا دقائق معدودة منذ أن سلمتُ الأوراق وانصرفت لم تكن كافية إلا لتفجير غضبه مِن كتابة اسمي قبل اسمه، وهل يقبل عاقلٌ أن يكتحل بحث باسم مجهول؟! لقد كانتْ كلمات سكرتيرته على الهاتف في مخيلتي ترأف بحالي وما سوف أقابل، كنت متيقناً من أنه لم يتصل بي مباشرة لحرصه أن أكونَ أمامه وجهاً لوجهٍ، فمثل هذه المعركة لا تُدار بالهاتف.

ذهبتُ إليه وأنا أدعو الله لي بالستر، كما كنتُ أُحاول أن أستجمعَ قواي في تقديم الاعتذار وطلب الصفح والغفران، بل وأُصارحه بكل شيء؛ فالصدقُ منجاة، فأنا لم أكتبْ بحثاً في حياتي، وليس لديَّ أي خبرة أو دراية بما ينشر، وأن هذه لا تعدو أن تكونَ مسودة بحث مبدئي، لا تعني أي شيء.

عندما وصلتُ حاولتُ أن أقرأ أي شيء مِن عيون سكرتيرته، كنتُ آمل أن تقول لي: ارجع من طريقك، اهرب، انجُ بجلدك، اعتذر بانشغالك مع المرضى وعُدْ في وقت آخر، كل هذا العَشم من هذه السكرتيرة لم يتحققْ، وإذا بها تقول لي: ادخل، هو في انتظارك وهي سعيدة أن أواجه هذا المصير بمفردي!

لم أشأ أن أقحمَ صديقي في هذا الأمر، فأنا من يتحمل المسؤولية كاملة عمَّا خطتْ يدي، كما أن العقاب الجماعي لن يخفف ألمي، بل سيزيده حرقة طوال الدهر.

طَرقتُ الباب بكل هدوء لكي لا يسمعه، وأعطي نفسي شيئاً من الوقت لارتداد أنفاسي وتهدئة خفقان قلبي، ولكي لا أثير غضبه بأي شيء، فإذا بي أسمع صوته يقول: تفضل، كان يجلس بكل أريحية على مكتبه، فعلمتُ أنه سيكون لقاءً مطولاً ينتزع فيه كل شيء، طلب مني الجلوس وقد جف لعابي، وطارت كل أفكاري، وكنتُ أتطلَّع إلى الأوراق أمامه، وكيف سيقوم بتمزيقها ومن ثم حرقها، لكنه لم يفعل، وقال لي: (أحسنتَ)! نعم هذه الكلمة القاتلة للحُرّ، أحسنتَ في رد المعروف، أحسنت في هذه الثقة التي وهبتها لك، أحسنت في هذه الكلمات المتقاطعة، أحسنت في هذه القواعد المكسرة، أحسنت في هذه الأفكار المبعثرة، أحسنت في هذه المراجع المنتثرة.

قال لي: أحسنتَ، ما رأيك أن نرسلها لمؤتمر عالمي، وإذا قُبِلَتْ فسوف يكون لك تذاكر وسكن وتسجيل في المؤتمر من قبلي؟! لم أصَدِّق ما قال، فلم يكن شيء مما قال في مخيلتي أو خطر على بالي، هل هذا حلم أو علم؟

أخبرتُ صديقي فيما بعدُ بما حل بي، وكيف أني لم أشأ أن أجُرَّ قدمه معي للعقاب، وكيف أن هذا الاستشاري قدم لي ما لم يخطر لي على بال، فقال لي: أنت في كندا يا صديقي!

لقد أوفى بعهده بعد قبول هذا البحث حيث طلب مني أن أُحْضِر له كل الأوراق الخاصة بالفندق والتذاكر والتسجيل، بل بارك لي أن قد قبل هذا البحث في اليوم الأول وفي أكبر قاعات هذا المؤتمر الدولي، عندها أيقنتُ سبب تخلفنا في الأبحاث وسبب تقدم الغرب، فبينما يكون اسم المؤلف الأول يعني أنه هو مَن قام بالبحث في الغرب، حتى لو كان طالباً يكون اسم المؤلف الأول في الدول النائمة رئيس القسم وعميد الكلية، وقد يصل للوزير، بينما لا يذكر مَن له الفضل غالباً.

عندما قال شداد لابنه: «كر يا عنتر»، قال: «العبد لا يحسن إلا الحلب والصيد»، فردَّ عليه «كر وأنت حر»، فأنقذ بهذه الكلمات بني عبس، لهذا عندما يتحرر المبدعون مِن استعباد المتنفذين سينقذون قومهم ويعلو شأنهم، وسيتزوجون من يعشقون، ويسجلون للتاريخ معلقات تستلهم العزة والنصر:

يا دارَ عَبْلَةَ بالجواء تَكَلَّمي
وعِمي صباحاً دار عبلةَ واسْلَمِي

لمَّا رأيتُ القومَ أَقْبَلَ جمْعُهم
يتذامرون كررتُ غير مذمَّمِ

ولقد شفى نفسي وأبرأ سقمها
قيل: الفوارس ويك عنتر أَقْدَمِ

تنصُّ الشرائعُ البحثية على أنَّ المؤلفين للبحث يجب أن يتَّفِقوا مسبقاً

على ترتيب الأسماء، ويُقدم من له أكبر المساهمات، وعلى ضوئها ترتب الأسماء لكي يكون الجميع على بينة مسبقاً، فلا يقع الجميع في معاركَ لا مناصَ منها عند اقتسام الأرباح، وفي المقابل يتحمل الجميع الخسائر والمساءلة بنفس النِّسَب، كما أن للمؤلف شرطين رئيسيين يجب أن يجتمعا دون استثناء وهما:

١. مساهمة جوهرية في البحث:

أي إن وجوده لا يعادل عدمه، هذا الوجودُ جوهريٌّ وبدونه لا يكتمل البحث، وهذا يكون بالاجتماع كفريقٍ وعصف الذهن بالأفكار، والتنبؤ بالصعاب ورسم الخطط ومتابعة الأحداث، وتقييم النتائج وكتابة البحث ومراجعته، وتقديمه للمجلة والرد على المحكمين، بالمقابل رئيس القسم ومدير المنشأة ومُجَمع النتائج ومحللها والمدقق اللغوي، ومَنْ حصَل على الدعم المالي لا يُقبلون في كل المجلات كمؤلفين إن لم يكن لهم مُساهمة جوهريَّة.

٢. تحمُّل المسؤولية الكاملة:

هذا يعني أنَّ كل ما ذُكِرَ في هذا البحث جديدٌ، ومُرَخَّصٌ وصادق وكامل، ومُحَقَّق ومراجَع ومُتَّبِع لكل قوانين الأبحاث، وأن جميع المؤلفين دون استثناء يَتَحَمَّلون الأمانة البحثية دون استثناء، وعلى عاتقهم كل الملامة في أي تجاوزات أو أخطاء لا تبررها ثقة، ولا يُقبل فيها تنازل ولا يشفع فيها جهلٌ.

كلُّ المجلات تطالب المؤلفين بالتوقيع على قراءتهم لشروط النشر لديها، وتوضيح الإسهامات الجوهرية في البحث، والتصديق على

كل المحتوى، وتحمل المسؤولية في كل ما كتب، وإعطاء المجلة حق النشر، وبهذا لم تعد الأبحاث تخضع للهيمنة الإدارية أو المالية أو التعليمية أو غيرها من المساومات القاتلة للإبداعات البحثية، والمُستَعْبِدة للعقول البشرية.

غـايــة الــوسـيـلــة

سألتُ مجموعةً مِن الطلبة: هل البحث غاية أو وسيلة؟

فكان الردُّ بديهيّاً: إنه وسـيلة، وليس غاية، أسـوة بالردود المفحمة أنَّ الغاية لا تبرر الوسـيلة حفاظاً على الفضيلة، لكن في الحقيقة الوسيلة يجب أن تكونَ غاية للمبتدئين؛ حتى يتعرفوا عليها ويتقنوها، ومن بعد ذلك تكون وسيلة حقيقية للمعرفة والاكتشاف والتقديم والانتشار.

مِـن القواعد الشـرعية: الوسـائل لهـا أحـكام المقاصـد، وحيث إنَّ الهـدف المرجو مِن الأبحـاث هو الرقي المعرفي، فوسـائل الأبحاث فـي مجملها حلالٌ زلال، بشـرط ألا يتبعها ضـرر، أو تكون منافعها أكبر مـن مصاعبها ومتاعب الخيارات الأخرى، أما إذا تسـاوتْ مع غيرها فتكون القاعدة الفقهيةُ لها بالمرصاد، وهي: دَرْءُ المفاسـد مُقدَّم علـى جلب المصالح، أما لو كانتْ غير واضحة فالأمر في غاية الدقة يحدده أهل الفقه والراسـخون في العلم، والذين بمقدورهم معرفة خير الخيرين وشـر الشـرين، وليس مَن بوسـعه معرفة الخير من الشـر فهؤلاء لم يتفقهوا بما فيه الكفاية، وليس لهم الحق في الفتوى والفصل في الشكوى.

كانت الأبحاث إلى عهد قريب كالكهنوت بدرجاته الكنَسية الثلاثة (الشماس والكاهن والأسقف)، محصورة في أعضاء هيئة التدريس في الجامعة، من أستاذ مساعد، فمشارك، حتى يصلوا إلى درجة أستاذ دكتور، وهو قمة الهرم الجامعي، والتي يتسابق إليها البعضُ بقدر ما يتسابقون عند الحصول عليها في البراءة من الوسيلة والغاية في أبحاثهم وما نشروه، وكل شيء يذكرهم أو يربطهم بها، وكأنها وصمة

عار قد كان الدهر كافياً في إخفاء معالمها، يتبع ذلك شعور بالانتقام من كل الوسائل والغايات البحثية، والوقوف بالمرصاد لكل مَن تُسَوِّل له نفسه حذو خُطَى هذا الأستاذ، بل يُقابَل كل من يتقدم بفكرة أو مشروع بحثي بالتشكيك والتعقيد والتربص والوصاية، فهذا ما ترنو عليه، وكلٌّ إناءٍ بما فيه ينضح.

كان مرفوضاً بالكامل مجرد النقاش في تثقيف أطباء الدراسات العليا عن البحث؛ حيث إنَّ البعض كان يرى أن هذا استدراج لهم ليتنصلوا من خدمة المريض، واستغلال بل واستعباد من أساتذة الجامعات لهؤلاء الطلبة مِن أجل مَصالحهم الشخصية في الترقية، حتى إن المجالس العلمية في الجامعات كانتْ إلى عهدٍ قريبٍ تُصِرُّ على أن تكون أبحاث عضو هيئة التدريس منفردة (مؤلف واحد) عند نشرها للتأكد من قيام هذا العضو بالبحث والنشر بنفسه.

بعد رجوع العديد من المبتعثين من الخارج، واحتكاكهم بمدارس البحث العلمي، تفجَّر بركان الأبحاث؛ من أفكارٍ ووسائل وغايات على جميع الأصعدة في السعودية، عقبه طوفان من المؤتمرات والدورات والكراسي البحثية، بل وحتى مناهج جديدة تدرس في السنوات الأولى من الجامعة، فلم يَعُدْ من المستغرب أن ترى طالباً في درجة البكالوريوس وقد نشر العديد مِن الأبحاث وفي أرقى المجلات العالمية، تفوق ما نشره عمداء النشر العلمي ورؤساء المجالس العلمية في الجامعات نفسها، بل وحتى من معالي مدير الجامعة.

لقد أصبحت الأبحاث مناهجَ تدرس لجيل واعد، ولم يفت القطار أي طبيب لم يَحْظَ بهذه الفرصة من التعليم، ولهؤلاء الأحبة نقول: اجعلْ

أول أبحاثك غاية في تعلم أبجديات البحث العلمي، وعندما تتقن القيادة بمفردك اجعل الأبحاث في حينها وسيلةً لك للإبداع والاكتشاف وإرواء شغفك في التحقق مِن صدق ما تمارس، ناهيك أن العديد مِن المؤسسات الصحية تبنَّت تمييزاً للباحثين عن غيرهم ماديّاً ومعنويّاً وإداريّاً.

وكلي أمل أن يصل بنا الحال إلى إثراء العالم بقواعد شرعية مُستقاة من ديننا الحنيف، تُؤَطِّر الغايات والوسائل الطبية، فليس كل ما سجله الغربُ لنا صالحاً للتطبيق، فما زال العديد مِن التشريعات البحثية لا ترقى إلى ما كرم به الخالق بني آدم.

فعلى سبيل المثال لا الحصر: الاستنساخ والجينات والموت الدماغي، كلي يقين أن البشَريَّة لن تجدَ أفضل مما يقوله الفقهاءُ المسلمون تشريعاً من رب العالمين لا يضاهيه أي عقل بشري.

كما آمل أن تتبنى جامعاتنا نظام الترسيم، لمن يحصل على درجة أستاذ مشارك فقط، أو حتى أستاذ دكتور، مع حد أدنى للنشر سنويّاً لهم، فالجامعات ليست ملاذاً أو ملجأ للمترديـة والنطيحة، أو مقبرة لما أكل السبع، نعم وجود المعمرين من معيدين ومحاضرين وأعضاء هيئة التدريس الذين لم يقدموا شيئاً أو يتقدموا بحثيّاً سوف يعيق إقلاع الجامعة برمتها، إن لم يهبطوا بها في حراج التشليح. في المقابل يجب أن تنْفضَ الجامعات غبار المدارس الابتدائية والمتوسطة وحتى الثانوية عنها، وتكون مصانع منتجة للفكر والتأليف والنشر، وعشقاً للمبدعين المتأملين بالزواج الأبدي مِن هذه الملكة، فلا طلاق أو تعداد معها لمكانتها ومالها وجمالها وحسبها.

العصف الذهني

في أحد المؤتمرات السنوية لأطباء العظام السويديين أَصَرَّ كل جراح أن طريقته هي الأفضل في استبدال مفصل الورك، ولهذا قرروا الجلوس معاً، ووضع معايير لتقييم النتائج، ومن ثم القياس عليها، استغرق هذا العصف الذهني قرابة السنتين، إلا أنهم تمكنوا من تقييم نتائجهم بكل موضوعية وشفافية، ووضع قائمة ترتيب لأفضل النتائج وأقلها مضاعفات، ومن ثم شارك الجميع الأفكار للوُصُول إلى أفضل نتائج التعلم من المراكز الأولى وزيارتها واختيار أفضلها بشكل مفعم بالحيوية والتطوير المشترك، أصبح لديهم منجم متجدد من النتائج، والتي ضاعفت نشرهم للأبحاث سنويّاً مع تطلع العالم لنتائجهم لاقتفاء أثرهم، وأصبح لديهم أفضل النتائج العالمية.

عندما تمتْ مقارنة نتائج الجراحين السويديين بالأمريكيين لمعرفة عدد المرضى الذين احتاجوا لإعادة العملية لهم بعد سبع سنوات اتضح أن العدد ثلاثة أضعاف السويد، ناهيك عن التكلفة المالية المضاعفة بإعادة العملية وآلام المرضى ومعاناتهم الأضعاف المضاعفة، تذكر أن عدد سكان السويد قرابة ١٠ مليون أي ثلث سكان السعودية، فهل من الصعب أن يجتمعَ الأطباء في كل تخصص مرة في السنة لوضع تصورهم عن معايير لنتائجهم، ليتشاركوا بها في تطوير خدماتهم للمرضى، ولكي يتعلموا من بعضهم البعض، ويؤسسوا بنكاً

وطنيّاً للمعلومات يكون مرجعية للجميع، ويثروا بها العالم كما فعل السويديون.

اخترع ألكس أوزبورن العصف الذهني في عام ١٩٣٩ ليكون مُولداً للأفكار من مجموعة إبداعية للحملات الإعلانية، إلا أنها أصبحتْ مدرسة لجميع التخصصات للوصول إلى أفضل الحلول بأقل الخسائر.

ويقوم العصف الذهني بكل بساطة على أربعة ركائز، أولها الكمية وهي استخراج أكبر كم ممكن من الأفكار لدى المجموعة، ثانيها عدم الانتقاد في هذه الفترة، ثالثاً: الترحيب بالأفكار غير التقليدية وتشجيعها، رابعاً: خلط الأفكار وتطويرها بمعادلة ١+١=٣، وبهذا تطوَّر العصف الذهني وأصبح له مدارس مختلفة وطقوس متباينة، كما أدخلت إليه التقنية والاتصال عن بُعد.

جمال البحث في تتابع خطواته، ومن أهمها اجتماعات العصف الذهني، فهذه الاجتماعات تكتشف وترجح، وتحل كل المعضلات بأفضل الطرق، وتنتهي بتلاقح أفكار قادرة على إنجاب توائم يصعب التمييز بينها في اختيار الأفضل والأصلح لإتمام البحث أو نشره، كما أنه يوفر خططاً بديلة وسريعة لحل المعضلات وتجاوز الأزمات.

لا يخلو بحث من صعاب وتحدياتٍ، بل إن هذه المشاق وحلولها مع سيناريوهات محبوكة هي ما يتطلع إليه القارئ ويستمتع، ولو كان البحث بهذه السهولة والبساطة لقام به الجميع منذ سنين، اجعل العصف الذهني مع جميع القائمين على البحث مجدولاً بشكل دوري حتى يتم نشره، وسوف تجد أنه ألذ ما في المسيرة البحثية، أما الانطوائية فهي سجنٌ انفرادي في قَبْوٍ مظلم يصعب على متبنيها

أن يخرجَ بشيء يستحق الاهتمام، ناهيك عن همه وحزنه وتردده، وانسحابه أمام أبسط التحديات.

وأكثر ما يميز البحث هو التنبؤ بالنتائج الغامضة والمغامرة بالوقت والجهد والمال؛ لهذا من الذكاء أو الدهاء أن يجتمع الفريق، ويتدربوا ويتحاوروا ويتبادلوا الكرة الفكرية، ويدافعوا ويهجموا ويترددوا ويشككوا ويستشيروا ويتواصلوا فيما بينهم، ولا محالة سيضاعف هذا الجمهور والمشجعين والقنوات والنقاد والمتابعين، وعندها سينتقل هؤلاء الهواة إلى محترفين تتجاذبهم أندية بحثية أخرى، وبأعلى العقود كلاعبين أو مدربين، نعم العصف الذهني مدرسة تدريبية تعطي أعلى الشهادات، وتُؤمن المستقبل المشرق لمتبنيها.

شـــمـــس أمـــس

نصحني بعض الأصدقاء في كندا بعدم الاقتراب من أحد المشرفين على الأبحاث؛ حيث إنه يوهم من يعمل معه بقدرته على نشر أي بحث وفي أي مجلة، كما أنه يستغل طيبة وبساطة المبتعثين العرب فيقوم بكتابة اسمه كمؤلف أول بعذر أنه قد تعب من التدقيق الإملائي والتصحيح اللغوي، لكن أمام غزله لي لم أتمكن من المقاومة، خاصة أنني سأكون معه وجهاً لوجه يوميّاً ولمدة ستة أشهر.

قمتُ بالعمل مع طبيبين خليجيين لإنهاء البحث في أسرع وقت، ومن ثم تقديمه في أحد المؤتمرات، كانت الفكرة برمتها مِن بنات أفكاري، وقد قضيتُ مع زملائي الوقت الطويل نبحث بين الملفات على المعلومات وجمعها بعد انتهاء ساعات العمل الطوال وفي نهاية الأسبوع، ومن ثم قمنا بكتابة البحث ومراجعته وتقديمه في مؤتمر كبير له مجلته التي بلا شك سوف تقبله للنشر، عندها كنتُ على يقين أن هذا المشرف لن يجد الكثير ليضيف على هذا البحث، وقد أخبرته أننا غير مستعجلين على رده، فبإمكانه أن يقضي الأيام في التدقيق لكي لا نتعبه في المراجعة مرة أخرى، في الحقيقة أحببت ألا يكون له عذر في كتابة اسمه أولاً.

بعد بضعة أيام أعاد البحث بقليل من التعديل، فقلتُ له: واضح أن ما قام به الزملاء كان مشرفاً ولا يستدعي تغييراً كبيراً، ولكن بعد إرجاعه له قام بالتعديل مرة أخرى، فعرفتُ أنه يجر أقدامي للتنازل كما قيل عنه، لكن بعد أخذٍ ورَدٍّ صارحني بأنه تعب كثيراً في التعديل؛ لهذا يرى أنه أحق واحد بكتابة اسمه كمؤلف أول!

لم أستعجل الرد مباشرة، وقلت له: سأستشير الزملاء، ورجعت بعدها بيوم وأخبرته أن بقية الزملاء لم يروا تغييراً جوهريّاً؛ لهذا فهم يُرَجِّبون به كآخر مؤلف، أو شكره إذا لم يرَ هذا العرض مناسباً، ولنا أن نستشير رئيس القسم إذا أحبَّ، والجميع سيكونون مُسَلِّمين لقراره كمحكم خارجي.

كنتُ على يقين أنه وقع في المصيدة، فهو لا يودُّ أن يفقد هذا البحث، كما أنه لا يود أن يكسر إحدى مسلماته في الاستيلاء على المؤلف الأول من العرب، وكنتُ أراه مفتعلاً للغضب لأدنى سبب في كل مرة يفتح الموضوع، لكني لم أكنْ لأتنازل له! وفي المقابل أخبرته: هل تود أن نناقش الأمر مع رئيس القسم أو رؤساء الأقسام الذين يرجع لهم الزملاء الخليجيون، لكنه ردَّ بالرفض، فالموضوعُ لا يستدعي كل هذا، وفي الحقيقة كان على يقين مِن حكم أي قاضي إن لم يشمل التوبيخ له أيضاً.

في أحد الأيام قال لي: إنه يعرف أحد الأطباء الذين لم ينجحوا في الزمالة؛ لأنَّ المشرف عليه أخبر الكلية الكندية عن عدم رضاه عنه بسبب مشكلة بحثية بينهما، ولهذا تكرر رسوبه عدة أعوام، ولم يستطع الرجوع لبلده دون شهادة، كنت أستمع لما يقول، وكلي يقين أنه تهديد مبطن! إلا أنني قلت له: إنني في غاية الإعجاب والاحترام لهذا الطبيب الذي لم يتنازل عن حقه، وكلي أمل أن أكون مثله، فأنا مستعد أن أخسرَ الزمالة، ولكني غير مستعد أن أخسر كرامتي، وكلي يقين أن زملائي يشاطرونني الرأي.

وبعد أن وجد جميع الأبواب قد أوصدت أمامه وافق أن يكون اسمه

آخر مؤلف، وأخبرت من يأتي من بعدي بما يقوم به، فأصبح العديد من العرب يُصارحه بعدم الرغبة في فقدان فرصة المؤلف الأول لوجود استشاريين كثيرين لا يساومون في هذا الأمر، ووجود أشخاص ومواقع متخصصين في التدقيق اللغوي.

المتعارَف عليه أن ترتيب المؤلفين يكون بحسب الجهد الفكري والجسدي في المخطوطة، لهذا يعاب أن يكون أكبر المؤلفين سنّاً وخبرة في المقدمة، فإما أن يكون هذا من عدم الاحترام له حيث قام بجُلِّ البحث، أو يكون تسلطاً منه وسرقة لمجهود غيره، كما هو الحال في العديد من الدول العربية، والمُحْزِن أن هذا المشرف عربي، ولم يكن عيشه في الغرب كافياً لأن يغير أفكاره، والمبكي أنَّ مَن سبقنا قد تواتروا في التنازل معه، حتى أصبح يرى أن هذا حق مكتسب له، مُبَرِّراً ذلك بما يقوم به من تَبَنٍّ للعرب ومساعدتهم على الأبحاث ونشرها لهم، وأنهم سيكونون غير قادرين على القيام بالأبحاث بدونه.

أغلب المبتدئين في الأبحاث يحتاجون إلى مشرفٍ يخبرهم بالصحيح، وأصح الصحيح في الأبحاث منذ ظهور الفكرة حتى نشرها، وقد ثلمت المعارك البحثية قلمه وفتحت بصره ومسامعه، وهو قادر على التنبؤ بمصير الأبحاث وصعوبتها، وما تحتاج إليه، ناهيك عن صقلها وتنميقها وتجهيزها كسلعة ثمينة يتطلع الكثير إليها.

اختيار المشرف على البحث لا يقل أهمية عند المبتدئين من اختيار البحث، فضع نصب عينيك نشر البحث، وتطلع لمن لديه العديد من الأبحاث المنشورة، وتذكَّرْ أن فاقد الشيء لا يعطيه، أو كما يقال: (لو

كانت شمس بانت أمس).

من المشرفين من لا يرغب في الأبحاث، ويستحي من التصريح بهذا القول، فيتمثل بالمثل الشعبي: «خلك مع الخيل يا شقرا»؛ أي إنه سيفعل مثل غيره حتى لو لم يكن قادراً على هذا، مع عدم وجود رغبة حقيقية أو معرفة أو وقت كافٍ، وعلى النقيض من هذا فهنالك من يتشوق للأبحاث وكأنها هواه الذي يتنفَّسُه، وحريص كل الحرص على استقطاب الباحثين ومد يد العون لهم.

السعيد مَن اتعظ بغيره، فتسمع وسمع ممن سبق وكيف كان حالهم ومآلهم، فليس من الذكاء ولا الدهاء اكتشاف مشرف جديد لا يعرفه من سبق، ولم ينهل من مَعينِه، أو يصلى بناره أحد، مجال المغامرة خطير هنا خاصَّةً للمبتدئين.

من المشرفين من تعتصر عيناه دموعاً، لكنها لا تعدو أن تكون دموع التماسيح لفريسة ثمينة، لمثل هؤلاء ومَن لم يكن له سابق تاريخ لا تدخل المصيدة بمفردك، تأكَّدْ من المشرف جيداً خاصة فيمن يدعي سهولة البحث وسرعته، أو علاقته بالمجلات التي لا ترد له بحثاً، أو أن اسمه مَكْسَب كبير لأي بحث، فإن لم يكن لك بُدٌّ فادخل مع جمع غفير يحميك.

السائل الشوكي CSF

كان مقالاً جميلاً سعدتُ بتحكيمه، لكني طلبتُ من محرر المجلة أن يستفسرَ مِن المؤلف عن فترة المتابعة للمرضى الذين أجرى لهم العملية، ولم يسجل أي حالة التهاب أو عدوى للجرح باستخدام طريقة مبتكرة في تضميد منطقة العملية، الصاعقة كانت أن هذا المخترع تابع المرضى في اليوم التالي للعملية فقط، ومن ثم أخرج المرضى دون متابعة، ومعلوم أن التهاب الجرح لا يظهر في اليوم الثاني؛ لهذا طلبت من المحرر عدم قبول هذا البحث للنشر؛ لافتقاره لأبسط الحقائق، والجميل أنني لم أرَ هذا البحث قد نشر فيما بعدُ، وكلي يقين أنه لن يُنشر.

يقع التقييم الأساسي على الأبحاث من قبل المحكمين على الطريقة التي سلكها الباحثُ في دراسته؛ لكي لا يضيع وقته الثمين بين الكلمات العذبة والجمل المنمقة، فحتى لو كانت سمفونية متناغمة لا تلبث أن تهبط إلى درجة الرفض إذا لم تكن الطريقة المتبَعة صحيحة، أو لم تكن قادرة على القيام بتأكيد النتائج.

بكل بساطةٍ تقوم الأبحاث على ثلاثة أرجُل رئيسية، يمكن مِن التمعن فيها معرفة قوة الدراسة من ضعفها، هذه الركائز الثلاث يمكن اختصارها بالحروف الأولية للسائل الشوكي باللغة الإنجليزية CSF، فكما أن السائل الشوكي يقوم بدور أساسي للمخ والحبل الشوكي من غذاء وحماية، فإن الأبحاث كذلك تتغذى وتحمى وتقوم على هذا الثالوث وهي:

١. الفئة المشاهدة Control Group

وهي المرآة الحقيقية لصدق الدراسة، وتقوم هذه الفئة على فكرة المقارنة الصادقة لاكتشاف أي تميز أو تأثير حقيقي على الفئة المدروسة بإجراء التجربة عليها، والدليل على هذا أن النتيجة كانت متطابقة أو متقاربة جدّاً بين الفئتين لدرجة النفي بوُجود أي تبعات من التدخل الذي أجري على الفئة المدروسة، بل ليس من المستبعد أن يكونَ لهذا التدخل آثار جانبية ضارة لم يكن من الممكن معرفتها بدون وجود فئة المشاهدة، فمثلاً لا يقبل أن يقال إن الحضانة للرضَّع تزيد من ذكاء الطفل؛ لأن الأطفال الذين أكملوا السنة في هذه الحضانات كان مستوى ذكائهم مرتفعاً، فقد تكون نتائج الأطفال الذين بقوا في منازلهم كفئة مشاهدة أعلى منهم بكثير، مع إصابة أطفال الحضانة بالتهابات الأذن الوسطى أضعاف ما أصيب به مجموعة المشاهدة.

٢. حجم العينة Sample Size

كلما كبرت العينة المدروسة كلما كانتْ أقرب لتمثيل المجتمع الذي يود الباحث دراسته، وفي المقابل كانت هذه الدراسة أطول وأصعب وأكثر تكلفة، ومثال ذلك لو قيل: إن التعرض للشمس يقلل الإصابة بالأرق؛ لأن بحثاً وصل إلى هذه النتيجة عند اكتشاف أن عامل نظافة في الطرقات كان يخلد للنوم مباشرة بينما عامل نظافة منزلية لا ينام بنفس السرعة، مع كونهما توْءَمين متطابقين في كل شيء.

٣. المتابعة Follow Up:

فترة المتابعة هي المرتكز الثالث للبحث الجيد، فكلما طالت فترة

المتابعة تنقحت النتائج، وظهرت الشوائب بشكل جيد، غير أن ضريبةَ هذه المتابعة هي التكلفة واحتمالية فقد النتائج، فلا يقبل أن يقال: إن التطعيمة الجديدة كانت آمنة؛ لأن جميع من أخذها لم يصابوا بأي مضاعفات خلال بقائهم عشر دقائق في الانتظار بعد التطعيم.

إذا لم تتقن أي شيء في الأبحاث، وأرسلت لك مقالة لتراجعها أو استمعتَ لمحاضرة جميلة، وتود أن تسألَ مقدمها، فاتبع طرق الخبراء، فعند الرد على المجلة أو سؤال المتحدث فقط أمعن النظر إلى الطريقة البحثية في الدراسة، ومدى مقدرتها على القيام على أرجلها الثلاث، فسائل المخ والحبل الشوكي لا محالة موجود في أي دراسة معتبرة ترقى للنشر أو التقديم.

الـدعـم الـمـالـي

حصلتُ على الموافقة المبدئية بكرسي بحث، وفي أحد اجتماعات الأطباء قال لي أحد الزملاء الأعزاء أمام الجميع: (هل صحيح حصلت على كرسي بحث؟)، فقلتُ: نعم، فقال متهكماً: (وهل هو في التقوقع، أو في الخشم والعطاس، كان الأولى أن يكونَ لأهل الحل والعقد من طب الباطنة وبالأخص الجهاز الهضمي)، فرد عليه أحدهم:

قَـوْمٌ هـمُ الأنـف والأذنـابُ غـيرُهـم
ومَـن يُسـاوي بأنـف الناقة الذنـب

أصيب صاحبي في مقتلٍ أمام الحضور، لكني كنتُ حريصاً على معرفة سبب حصولي على هذا الكرسي وأشقائي لم يحالفهم الحظ، ومنهم مَن هو أقدم وأرفع درجة علمية مني، فكان الجوابُ هو عدد الأبحاث المنشورة والدعم المالي لها.

في الحقيقةِ كان صديقي العزيز محقّاً بعض الشيء، فلم يُكتب النجاح المأمول للعديد مِن الكراسي، وأصبحت بحق سراباً إذا أقبل عليها المنصف لم يجدها شيئاً.

سجَّل التاريخ للملك البابلي نبوخذ نصر أول دعم لبحث؛ حيث موَّل تجربة في عام ٦٠٥ قبل الميلاد تبحث في نظرية: أن الماء والخضار أفضل من اللحم والنبيذ، واستمرت التجربة لمدة ثلاث سنوات على مجموعتين، أثبتت نتائجها منذ ذلك الوقت أهمية الغذاء المتزن بقدْرِ ما أثبتت أهمية دعم الأبحاث ولمدة طويلة، بل وتبني رأس الهرم لهذا الفكر.

تتبنى العديدُ مِن الدول دعم الأبحاث، بل إن بعضها جعل لها وزارة مستقلة تنعم بدعم كبيرٍ يُوازي بقية الوزارات مع استقلالية تامَّة من البيروقراطية والوصاية والمساومات، تعادل استقلالية السلطات القضائية والتشريعية والتنفيذية عن بعضها البعض لتكون هي السلطة الرابعة.

في أمريكا على سبيل المثال: توجد العديد من الهيئات الداعمة للأبحاث، وأشهرها المعاهد الوطنية الصحية NIH، والتي تُعَدُّ أكبر داعم للأبحاث على مستوى العالم، كما تم في أمريكا وضْعُ تشريع جمركي في غاية الذكاء يُجبر الشركات الطامحة بشهادة الغذاء والدواء الأمريكية FDA إجراء الأبحاث الموثقة في الجامعات والمراجع المعتمدة، وضخ كل الدعم لها دون التدخُّل في نتائجها، وإذا أثبتتْ صحتها ومنفعتها يرخص لها بالدعاية والترويج والبيع على أراضيها، وبهذا تمول الأبحاث والاكتشافات في أمريكا وتدفع الشركات الفاتورة الجمركية الكبيرة، وقد لا تسعفها الأسواق الأمريكية في سدادها، إلا أن بقية دول العالم النامي تشارك في دفع هذه الفاتورة، وذلك باشتراطها أيضاً لهذه الشهادة، وتقبلها للسعر المرتفع، بينما تعتمد بقيةُ الدول المتقدمة على أبحاثها في موطنها للتصريح لأي منتج يباع على أراضيها.

تشجع العديد من الدول دعْمَ الأوقاف البحثية، وتُعطي العديد من التسهيلات والدعم والإشادة بِمَن يود القيام بها كأفرادٍ أو مؤسسات، ومن هذه التنظيمات اللا ربحية الكراسي البحثية، والتي تتبنَّى دراسةَ فكرة لمدة زمنية بدعم مِن متبرِّع، ويشمل هذا دعم طلاب الدراسات

العليا، وإنشاء المختبرات، وإقامة الدورات التدريبية والمؤتمرات، وعند نجاح هذه الفكرة تحصل على دعم أطول، أو يقام لها مركز مُستدام تتبناه مرجعية الكرسي.

في الحقيقة هذه الكراسي اختبارٌ عملي لنجاح الفكرة، ونجاح القائمين عليها في إبرازها وتوفير الحلول اللازمة لها خلال فترة الكرسي، ووضع تصور مستقبلي لها، وكانت تجربتي مع كرسي الأمير سلطان بن عبدالعزيز لأبحاث الإعاقة السمعية وزراعة السماعات ناجحةً بتأسيس مركز الملك عبدالله التخصصي للأذن مع أربعة كراسيّ فقط، تأسس منها مراكز مستدامة، والمحزن أن هذه الكراسي فيما بعدُ أُقْحِمَتْ في تعقيداتٍ بيروقراطية أدخلتْها في سُباتٍ عميق، ووأدت الأفكار الجديدة في رحمها.

تشترط وتُتابِعُ العديدُ مِن الجهات الرقابية في الدول المتقدمة ما تتحصل عليه المؤسساتُ التعليميةُ العليا كجامعات ومعاهد مِن دعم بحثي خارجي، ومن ثم توازي دعمها الحكومي لها بما تُحَقِّقه هذه المؤسسات من إنجازات في استقطاب رؤوس الأموال الداعمة؛ من مؤسسات خيرية، أو شركات استثمارية، أو مصانع تبحث عن شهادات موثقة لمنتجها؛ لهذا تقوم هذه المؤسساتُ التعليمية بترسيخ هذا الفكر لدى منسوبيها، وبمتابعة هذه الإنجازات من موظفيها، بل وحتى تقييمهم تبعاً لما يَحْصُلون عليه من مشاريع أو كراسي، أو أوقاف بحثية مدعومة، والمضحك المبكي أن الدول النامية تستعيب حكوماتها من هذا الدعم وتُشَكِّك فيه، وتعُدُّه أحد أوجه الفساد وغسيل الأموال، ومن نفس الزاوية الضيقة تنظر إليه مؤسساتها التعليمية بعين الريبة والشك،

ناهيك عن أنه باب للتفرقة العنصرية بين منسوبيها.

ختاماً آمل أن تتخيل معي كيف أن ميزانية الجيش "الإسرائيلي" يُعادل ٧٪ من الدخل القومي، بينما ميزانية البحث العلمي ٥ ٪ متربعة بهذه النسبة على عرش أعلى الدول دعماً للأبحاث، وتذكَّرْ معي أن "إسرائيل" هزمتْ جميع جيوش الدول العربية التي وجهتْ جل ميزانياتها لوزارات الدفاع، وما زالت "إسرائيل" محتلة للأراضي العربية، وبنسبة ٧٪ فقط من الدخل القومي لها.

سؤال: ماذا عسى "إسرائيل" أن تفعل بالعرب بل بالعالم أجمع وقد أصبحت أعلى دولة تسخر دخلها القومي لترسانتها البحثية؟

الـدورات الـبـحـثـيـة

خططنا دورةً تدريبية للأبحاث، كان الهدفُ منها تثقيف أطباء الزمالة في سنواتهم المتقدمة على الأبحاث بطاقة استيعابية لعشرين متدرباً، وعندما أعلنَّا عنها تجاوز التسجيل في اليوم الأول العدد المقترح، ففكرنا في فتْحِ قائمة للانتظار عند اعتذار المسجلين أو تغيبهم، لكن الأعداد تضاعفتْ يوماً بعد يوم، وشملت استشاريين وطلبة وتمريضاً، مما استوجب أن يقفل التسجيل عند حاجز المائتين؛ لعدم وجود قاعة كافية للضيوف، وبالمقابل كبر البرنامج المقدَّم وتوسع ليشمل متحدثين من خارج المركز.

هذا يُوَضِّح مدى التعطش عند الجميع، والرغبة الجامحة في التعرف على الأبحاث، بل الأكثر إثارة هو ترحيب المتحدثين وحضورهم للمشاركة في هذه الدورة وتقديم ما لديهم من خبراتٍ لا تُقَدَّر بثمن، ولعل من ثمراتها قيامي بتأليف هذا الكتاب؛ لما استفدتُ مِن المحاضرين والأساتذة المتميزين من أفكار بحثية وطرق إلقاء وتبسيط وجذب وإمتاع للحضور، وكذلك من الاستفسارات والمداخلات من الحضور وربما يكون هنالك تجديد لهذا الكتاب بعد كل دورة، فعلى المنظم تدور الدوائر.

تقيم العديدُ من المؤسسات التعليمية دوراتٍ بحثيةً مستقلة، أو على هامش المؤتمرات، ليس تهميشاً كما تقول الكلمة، بل استغلالاً للمتحدثين الكبار، واستقطاباً أكبر للحضور، هذه الدوراتُ تُقام بطرق متباينة وبمستويات بسيطة ومتقدمة، تعطي المجال لجميع الأذواق،

كما تقيم بعض المؤسسات الصحية دورات بحثية لمنسوبيها، وتعدها مِن نقاط التقييم.

هذه اللقاءاتُ على بساطتها وقصرها إلا أنها مشاريع تزاوُج وتلاقُح بين الأفكار؛ لإنجاب أسر مترابطة، وتبنّي جسور من الفولاذ بين الحضور لاستثمار علاقاتهم ببعضهم البعض، وتبني مشاريع بحثية مشتركة بين تخصصات مختلفة غالباً ما يُكْتَبُ لها النجاحُ الأكبر من أبحاث متقوقعة في مجال واحد؛ لهذا يحضر العديدُ من الاستشاريين والأساتذة الكبار للاستماع، ولتقديم ما لديهم من أفكار ليتزاوجَ معها مَن يثقون به.

وكلي أملٌ أن تكون هذه الدورات إلزامية في استخراج الشهادات، بل بشكل دوري عند تجديد رخص مزاولة المهنة؛ كدورات الإنعاش، فهذه الدورات هي إنعاش لعقول الممارسين، لا تقلُّ عن دورات إنعاش المصابين.

وهنالك العديد من الدورات التي تُقام بشيء من التفصيل وتثري كل نقاط البحث العلمي، ومنها ما يأخذ طريقة المجموعات الصغيرة والتعلم بين المشاركين بعضهم البعض، ومنها ما يستمر بمسلسلٍ مِن الاجتماعات حتى نشر المشارك لبحثِه.

توجد العديدُ مِن محاضرات هذه الدورات على الشبكة العنكبوتية، ومن هذه المحاضرات الغثُّ ومنها السمين، وقد يكون من المفيد تنزيل هذه المحاضرات والاستماع إليها في الساعات الطوال في السيارة وتبادلها بين الأصحاب، ومناقشتها بعد الاستماع إليها، وانتقادها بشكل بنَّاءٍ

يُثري النقاش، ويثبت المعلومة، ويرسخ أهمية البحث وطرقه، بل وحتى استثماراته وبناء الشراكات.

بــراءة الاخــتــراع

يتقدم إلينا في كل عام العديد من الأطباء المتميزين للقبول في زمالة التخصص الدقيق، ومن ضمن نقاط التقييم لهم بل أهمها هي: الأبحاث، كان أحد الأطباء الذين لم يحالفهم الحظ في العام المنصرم يتقدم للمقابلة الشخصية مرة أخرى، وهذه المرة لم يكن معه بحث كبقية المتقدمين، بل براءة اختراع، عندها اتفقت اللجنة المنظمة المُشكلة من عدة مستشفيات والأساتذة الزائرين أن هذا الطبيب لا يقارعه أحد، لكن ما هي براءة الاختراع التي انتصرتْ لهذا الطبيب من لجنة المقابلات وبالضربة القاضية.

براءة الاختراع هي حق تملك لفكرة جديدة جوهرية مفيدة لفترة زمنية، تُعطى بشكل رسمي لمكتشفها مقابل عرضها للجمهور، هذا الصكُّ للمِلْكِيَّة الفكرية يُعطي كل الحق الحصري لصاحبها بالتصرف فيها واستثمارها؛ من تصنيع، وترويج، وتأجير، وبيع، ولا يحق لغيره التعامل معها دون موافقة معتمدة من صاحبها، وتوجد العديد من محركات البحث عن براءات الاختراع، وتستغرق فترة التسجيل ما يقارب السنتين وتستمر مدة الحماية لما يقارب العشرين عاماً.

أقامت العديد من الدول مؤسسات لها تحمي مواطنيها، وتُسجِّل لهم براءات الاختراع، ويحق لها سن القوانين لحماية المسجلين لديها محليّاً وعالميّاً بالمعاهدات والمواثيق الدولية، بل منها ما يحمي مَن يسجل فيها، حتى لو لم يكن من مواطني هذا البلد، ويختلف تسجيل هذه البراءة من مؤسسةٍ لأخرى في قوة الحصانة وشموليتها وتبعات التعدي عليها، وخطوات

تقييمها وسرعة إثباتها، لكنها تجتمع في أبجديات البراءة للفكرة؛ حيث تشترط أن تكونَ جديدةً لم يسبق الكشف عنها للجمهور، وابتكارية غير بدهية، ولها استخدام منطقي؛ فلا تقبل الأفكار الأدبية، ولا الرياضية، ولا النظريات، ولا الاكتشافات، ولا الجراحات والتشخيصات والبرامج الحاسوبية، ولا سُبُل القيام بعمل، ولا الشعارات، ولا الأسماء، ولا العلامات لعدم استيفائها للشروط كاملة، مع أنها تُعَدُّ ملكية فكرية.

وتُعَدُّ براءة الاختراع أعلى أوسمة النشر العلمي، وتقام لها المعارض والجوائز الدولية لإيقاد روح المنافسات بين المكتشفين، وتوفير سوق لهم يعرضون فيه بضاعتهم؛ لهذا يُعتَمَد عليها في القبولِ في التخصصات الصحية، وخاصة إذا احتدم الوطيس بين المتنافسين، كما تُميز الجامعات وتُقيم الشركات بعدد البراءات العلمية المسجلة لها.

هنالك رسومٌ تُدْفَع للاستئثار بالتسجيل وللتصرف في البراءة، وكذلك رسوم دورية متزايدة سنويّاً للحفاظ على البراءة محمية، بمجملها لا تتجاوز هذه الرسوم عشرة آلاف ريال، وفي مدينة الملك عبدالعزيز للعلوم والتقنية يتم دفع الرسوم للمواطنين السعوديين بمكرمة خاصة من خادم الحرمين الشريفين، أبعْد هذا تشجيع ورفاهية؟

كما توجد مكاتبُ محاماة متخصِّصة في هذا المجال؛ تُساعد في التحقُّق مِن البراءة وفي تسجيلها بمقابل مادي، وقد تشترط بعض الدول لغير مواطنيها توكيلاً لهذه المكاتب للتقديم المعتمد لديها.

وفي المملكة العربية السعودية تقوم مدينة الملك عبدالعزيز للعلوم والتقنية بهذا الدور، وتُقدِّم العديد من الدورات والتسهيلات، ويشبه التقديم عليها بالتقديم على دعم بحث باستمارات يتم تعبئتها وتوثيقها إلكترونيّاً، وقد احتلتْ مملكتنا الغالية مراتب عالمية متقدمة، وهي الأولى عربيّاً في معدل نمو طلبات الاختراع، لكن تبقى المعضلة الكبرى هي نقل البراءات من براويز الشهادات إلى واقع ملموس في الصناعات، والأسواق المحلية والعالمية.

وهنا همسة في أذنك أخي العزيز وهي: أن «الحاجة أم الاختراع»، فإذا أَحْبَبْتَ أن تُسَجِّلَ لك براءةً فاخترع لك حاجة، وتذكر أن المستغنين أعداء المخترعين، وردد دوماً قوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى (٦) أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى﴾ [العلق: ٦، ٧]، فتَذَلَّلْ وتواضعْ وانكسِرْ، وتلمس حاجاتك مهما كانتْ بسيطة، بل حتى تتبع حاجات غيرك بالاستماع المطبق والتفهم المشفق.

الصبر مفتاح النشر

قام العالمان الأستراليان روبن وارن (خبير الأمراض)، وطالبٌ في مُقْتَبَل عُمرِه يُدْعَى: باري مارشال بالتفكير في احتمالية وجود جرثومة لدى مرضى قرحة المعدة والاثني عشر، كان هذا التفكيرُ بكل بساطة كفراً بواحاً مُخْرِجاً من عقيدة طبية صلبة، بل رِدة عن أقدس المقدسات وأكبر المسلمات، وهي: استحالة قدرة أي جُرثومة على العيش في المعدة؛ لِوُجود حمض حارقٍ لكل شيء!

قادهم هذا التفكير في عام ١٩٨٢ إلى اكتشاف بكتيريا في مرضى التهابات المعدة والأمعاء وتقرحاتها وعند مرضى سَرَطان المعدة، وهذا قائمٌ على خروجٍ متطرف عن مذهب كهنوتي متأصِّلٍ ينُصُّ على «ما لم يزرعْ في يومين لا يمكن زراعته»، فكان الصبرُ لليوم الرابع هو إثبات الوجود لهذه الجرثومة في أطباق الزراعة!

قُوبِل هذا الاكتشافُ بالسخرية والاستهزاء تارةً، وبالتشكيك والانتقاد الحاد تارة أخرى، لدرجة أن مارشال في عام ١٩٨٥ خضع لعملية استئصال المعدة؛ ليثبتَ أنه لا يحمل الجرثومة، ومن ثم أعدى نفسه بها ليصاب بأمراض المعدة، وليثبت ذلك بخزعة أثبتت نبات هذه الجرثومة في قوالب الزراعة بعد إعطائها مهلة أطول من المعتاد ومن ثم نشر هذا البحث، بعد هذا قامتْ ثورة بحثيةٌ تجاوزت ٢٥٠٠٠ مقالٍ بحثي، بل ظهرتْ للعيان مجلة طبية تحمل اسم هذه الجرثومة!

لقد كان أكبر دليل على صِدْق اكتشافهم هو تماثل أغلبية المرضى للشفاء بعد تناول الدواء، وإلى الهبوط الحاد في عدد حالات القرحة

وسرطان المعدة، بل إن العديد من مشاهير الجراحة العالميين فقدوا وظائفهم، وتَمَّ تَسْريحهم وانتهى عصر الجراحات الكبيرة لقُرحة المعدة عندما تماثل المرضى للشفاء بعد بضعة أيام مِن أدوية بسيطة تشمل مضادات حيوية ومخفضات للحموضة!

فاز هذان المكتشفان بجائزة نوبل في الطب عام ٢٠٠٥، بل اعتبر هذا الاكتشاف أكبر ثورة طبية في القرن العشرين، مع أن الحقيقة في وجود هذه البكتيريا في المعدة قد اكتشفت عام ١٨٧٥ أي قبلَ مائة عام مِن قِبَل عالمٍ ألمانيٍّ، إلا أن عدم مقدرة أحد على زراعتها جَعَل هذا الاكتشافَ مندثراً في بحر النسيان.

صحيح أن العديد من الأبحاث الخجولة ظهرتْ بين هاتين الفترتين، إلا أن العالم لم يُثَمِّنْها؛ لعدم مقدرة أصحابها على مواجَهة الأغلبية الرافضة عن الإلحاد بمقدساتٍ آمَنَ بها السابقون، وهم على آثارهم مُقتدون.

ضرَب هذان العالمان أروع الأمثلة على الصبرِ والتحمُّل والتأني، فقد صَبَرَا على المزرعة عدة أيام، مخالِفَيْنِ بذلك القواعدَ المتبَعة في عصرهما، وصَبَرَا عدة سنوات على التشكيك والتكبيل والتندر والاستنقاص، ضَحَّا بصحتهما، وتجرَّعَا علقم العمليات وألم الجروح وسقم المرض وسم الدواء، واخْتَبَرَا النتائج على أنفسهما، وبعد عشرين عاماً من الاكتشاف اسْتَلَمَا جائزة الصبر العالمية (جائزة نوبل).

يتوقع بعضُ الأطباء في مقتبل حياتهم أنَّ ضربة الحظ سوف تَتَجَلَّى خلال أول بحثٍ يقومون به، وسوف ينتهي بهم المطاف في الشوط

الأول إلى أعلى المنصات وأفضل الجوائز، وعندما لا يتحقق هذا الحلم يفقدون روحَ المرَح في الأبحاث، وينقلب كلُّ شيء إلى كابوسٍ مزعجٍ، يودون الاستيقاظ منه والتبرُّؤ منه بأسرع وقت ممكن، ولمثل هؤلاء يكون التوقف بترَوٍّ وتمعُّنٍ على قصص المبدعين والمكرمين ومعاناتهم هو البلسم الذي يُغني عن التفكير في الانتحار البحثي والاستسلام للواقع.

قال المتنبّي:

لـولا المَشَـقَّةُ سـاد النـاسُ كلـهم
الجـودُ يُـفقـر والإقـدامُ قَـتَّـالُ

هذا الصبرُ ليس الموت السريري للإبداع، بل هو ما يُذكي نار المغامرة والتحمل والتجلد، وفي المقابل هو ما يُجمد الحقد، ويُثلج الكِبر، ويجمح الانتقام للرد على المنتقدين، نعم نارُ المغامرة موقدةً متوهجةً يذكي لهيبَها المشككون لكي لا تخبت، ولكي يكون كل تحدٍّ لهذا الصبر برداً وسلاماً، ولكل شوائب العلم استحماماً.

تذكَّرْ أن الكائنات التي لم تَنْقَرِضْ لم تكن الأقوى، ولكنها كانت الأصبر، وكما أنَّ لكلِّ خالد في تاريخ البشَريَّة قصة صبر، فإنَّ لكل باحث بل لكلِّ بحثٍ قام به قصة صبر.

التصنيف العفيف

في عام ٢٠٠٨ حدث تسونامي كبير أغرق العديد مِن المجلات الشهيرة، وأظهر مجلة مغمورة تسمى أكتا كرستالوقرافيكا Acta-Crystallographica حيث تربَّعَتْ على عرش التصنيف الدولي للمجلات، والقائم على عامل التأثير، وصَدِّقْ أو لا تُصَدِّق برقم ٥٠، بعد أن كانتْ تتأرجح عند الرقم ٢ لعدة سنوات، في هذا العام أُقصيت مجلة الطبيعة Nature ملكة المجلات (ذات معامل التأثير ٣١)، ووصيفتها مجلة العلوم (بمعامل التأثير ٢٨) عن مكانهما، كان السبب لهذا الطوفان هو نَشْرُ مقال في هذه المجلة حصد ٦٦٠٠ استشهاد من مجلات أخرى (ابحثْ عن هذا الاستشهاد بنفسك).

أَسَّسَ عالم اللغويات ورجل الأعمال الأمريكي إيوجين جارفيلد عامل التأثير Impact Factor، وهو أيضاً مؤسس المعهد العلمي للمعلومات، والمعروف بمختصر: ISI، والذي تقوم به العديد من المؤسسات، ومن أشهرها مؤسسة تومسن رويترز واسعة الانتشار، والتي تنشر سنويّاً ترتيب المجلات المعترَف بها بحسب مخرجاتها العلمية والاستشهادات لها؛ لهذا تستغيث المجلات للحصول على هذا الاعتراف الدولي، ومن ثم تستميت للرقي في سُلَّم التقييم.

هنالك العديد مِن التصنيفات للمجلات العالمية، والتي تُقيم المجلات باستخدام معايير مختلفة، ولعل أشهر هذه المعايير وأقدمها وأكثرها انتشاراً: عامل التأثير؛ حيث بدأ العمل به عام ١٩٧٥، ويتم حسابه سنويّاً بتقسيم مجموع الاستدلالات من مجلةٍ ما بعدد مقالاتها خلال

سنتين سابقتين، فلو كان عاملُ التأثير ٥ في عام ٢٠١٥؛ فهذا يعني أنه تم الاستدلال بمعدل ٥ مرات لكل مقال نُشِرَ في هذه المجلة عامي (٢٠١٣ و٢٠١٤).

وهناك العديدُ من العيوب لهذا التقييم نَذْكُر خمسة منها:

أولها: أنه محصور في سنتين فقط، مع أن الاستدلال يحتاج فترة أطول لقراءة المقال والاستشهاد به، ومن ثم الانتهاء من البحث، أضف إلى ذلك ما يتطلب النشر مِن وقتٍ طويلٍ.

ثانيها: أن هذا المقياس يقوم بحساب المتوسط الحسابي الذي لا يُعَدُّ معلومة إحصائية قوية؛ لتأثُّره الكبير بأعلى وأقل قيمة، والتي قد تكون في غاية التطرف الحسابي.

ثالثها: إمكانية الغبن بعدم احتساب الاستدلالات لمقال من نفس المجلة.

رابعها: احتساب الاستدلال فقط، وقد يستدل بمقالات لتحليل Meta، أو حتى مقالات بسيط؛ كالمراجعة Review، أو ضعيفة كالمسح Screening ، أضعاف ما يستدل بمقال علمي قوي.

خامسها: التلاعب الحسابي بهذا الكسر بتقليل عدد المقالات، والإكثار من المقالات الاستشهادية، ولو كانتْ ضعيفة.

المجلات البحثية هي منشورات علمية راقية، تعرض فيها المقالات النزيهة، إلا أنها أولاً وأخيراً مجلات تُمَثِّل دخلاً مالياً لملاكها من أشخاص أو مؤسسات أو جمعيات، ومع أنَّ أغلبها غير ربحية، لكن

يبقى الدَّخْل المالي أحد مقومات الحياة لها؛ لهذا تحرص هذه المجلات بالظهور في أعلى قوائم التقييم، مع المحافظة على المصداقية والأمانة والنزاهة، لكن لكل قاعدة شواذ، ولكل تقييم ثغرات تُحاول من خلاله بعض المجلات الضعيفة تحقيق معدلات أعلى؛ لتُوهم القارئ بقوتها ومقارعتها لمن هم أكبر منها، وبهذا يزداد متابعوها، ويزداد تقييمها، ومن ثم يزداد دخلها من المبيعات ومن الإعلانات بداخلها.

ومع تقدم التقنية أصبح من السهل والسريع معرفة تأثير كل مجلة وكل مقال، بل وحتى كل بحث، فللمؤلفين هنالك مؤشر G و H يقيس إنتاجهم، ولكل منهما محاسنه ومساوئه، وهناك مؤشر الشراء للمقالات، وعدد الزيارات، والتنزيل الرقمي من الشبكة العنكبوتية.

ومن الفكاهة هنا أن العديد من المقالات التي يتطلع إليها القراءُ، ويحرصون على اقتنائها، ويشترونها بأعلى الأثمان هي مقالات تشرح الطُّرُق المتبَعة في التشخيص أو العلاج، وهذه المقالات لا تحظى بالاستشهادات العالية.

ولا يتَّسِع المقام لذِكْر كل هذه المقاييس، وما لها وما عليها، ولكن يجدر التنبيه إلى وجود العديد من التحفظ على هذه المقاييس؛ لما لها من عيوب يجب التنبُّه لها قبل الاستدلال بها، مع عدم وجود مقياس عالمي مُوَحَّد يمكن الرجوع إليه، وعدم القدرة على تحويل وحدة القياس بين هذه المعايير؛ كالتحويل بين وحدات الارتفاع (المتر والقدم والبوصة واليارِدة) على سبيل المثال، ناهيك عن استخدامات خاطئة لهذه المقاييس؛ كمَن يقيس الوزن بالفهرنهايت.

رسـبـونـي

أَقَـرَّ المجلس العلمي على أطباء الزمالة القيامَ بأبحاث ونشـرها، قبل السماح لهم بالجلوس على مقاعد الاختبار النهائي للزمالة، وكنتُ أرى أن هذا فَتْحٌ كبير تحقق لأن الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن.

لم يتم التطبيق في العام الأول على أن يكون في العام الذي يليه، كنت مـن الذين تبنَّوْا هـذه الفكرة، وكالعديد من الزمـلاء ادعيت أنني من كان السبب في تسجيلها تشريعاً في هذه الزمالة، وفي السنة التي تليها تم التأجيل سـنة، واسـتمر الترحيل للسـنة القادمة في نهاية كل عام، واقترحـتُ أن يقـدمَ هذا القرار سـنة، بحيث لا ينتقل المتدرب للسـنة الخامسـة حتى يحققَ هذا الشـرط، وتمت الموافقةُ عليه، إلا أنه دخل في سنوات التأجيل أيضاً، كما أنَّ أحد الزملاء أخبرني أن متدرباً قال "رسبوني"، فلن أستطيع القيام بهذا العمل، فقد حاولتُ مراراً وتَكراراً ولم أستطع! صحيح أن قلوبنا تعتصر على أبنائنا، كيف يتخرجون ولا يتقنون لغة الأبحاث، بالمقابل لا نود أن نكون عثرةً في طريق هؤلاء الزملاء.

مـن المحزنِ أن يجـدَ هذا الخريج أن مسـتقبله لم يَعُـدْ مقتصراً على معرفتـه بالتخصـص، وإتقانـه للعمليات، بل يعتمد علـى مقدرته في مواكبة العصر، والتعرف على كل جديد، مع فحصه وتمحيصه، ومن

ثم تبنيه مبكراً لكل جديد ليواكب العصر، أو بالمقابل سيجد نفسه متأخراً بعدة قُرون عن أطباء تخرجوا من بعده، فكان لهم الحظ الأوفر في التقدم والتقديم والمناصب وثقة المسؤولين.

من الغريب أن بعض الأطباء يبرر عُزوفه عن الأبحاث بسبب إخلاصه في عمله، وتفانيه في واجبه مع المريض، وكأن البحث يتعارض معها، وغالباً ما أَرُدُّ عليهم بأن العلاقة بين الإخلاص والتفاني مِن جهةٍ والأبحاث من جهة أخرى هي علاقة تآزر وتكامل، فمِن غير المعقول أن يرفضَ الرجل الزواج من أجل البر بوالدته، أو أن يحجم عن قراءة القرآن ليخشعَ في صلاته، بل بالعكس تماماً، فالزواج مرضاة للأم، وزيادة في خدمتها وفرحة مهجتها في تربية أحفادها، وكذلك قراءة القرآن وتفهمه أصلُ خشوع المرء في صلاته، وكذلك الأبحاث للطب وللمريض هي روح العطاء والإخلاص والصدق والأمانة والتشوق والتفاني.

يتعلَّق بعض حديثي العهد بالطب بعاطفة الأمومة والشفقة على المريض، وهذا إحساس فطريٌّ يجبل عليه الجميعُ، كما جُبِلَتْ عليه الأم مع مولودها البكر، وخاصة في أيامه الأولى، ولكن مع تقدم العمر وتوسُّع الخبرات تتطوَّر هذه العواطف، وتختلط بشيء من العقلانية؛ ليتشاطروا النظرة الصحيحة في تربية هذا الطفل، فلو لم تتدخل العقلانية لَطَغَتْ هذه العاطفة على كل شيء، ومنعت الطفل من الحبو والمشي خوفاً عليه، ولم تدعه يترك أحضان أمه حتى سن الرشد؛ لهذا يجب أن يعي الطبيب أن العواطف مُضِرَّة، بل قاتلة للمريض إذا لم يُصاحبْها عقلانية متفهمة متطلعة متنبئة بتبعات كل

خيار يمكن أن يُقَدِّمَه للمريض، ولن يكون هذا بمقدوره إذا لم يُمْعِنْ عقله في البحث والاطلاع والتدقيق والتمحيص في كل شيء؛ لأن الكتاب الذي كان بين يديه أيام التدريب لن يكون بوسعه أن يسعفه في أول اختبار عملي يُواجِهُه بمفرده.

علاج المريض والأبحاث وجهان لعملة واحدة، ولا توجد أي عملة ورقية أو معدنية بوجه واحد، ولن يقبل بها أحدٌ، وبدون أدنى شك سيراها الناس بشيء من الريبة، ولن يقبلوا التعامل بها مع توفر عملة أعلى قيمة بوجهين، ولو سُكَّتْ في أعوام متأخرة!

الطبيبُ الذي لا يبحث عن كل جديد ويمحصه ويقرأ المقالات الحديثة، ويركن إلى كتاب الزمالة الذي قرأه، يقف على بُعد خمسين عاماً بأقل تقديرٍ عن الطبيب الباحث، فهذا الكتاب الذي قرأه قبل عشر سنوات طُبِعَ قبل ذلك بعشر سنوات، وأُلِّف قبل ذلك بعشر سنوات مِن مقالات نُشِرَتْ قبل ذلك بعشر سنوات أجريت أبحاثها قبل النشر بعشر سنوات! نصف قرن كافية لتحلل نصف البشَريَّة وظهور جيل مختلف ومُطَّلِع على صغار التفاصيل وأحدث التقنيات.

هـاتـوا بُـرهـانـكـم

قام أحدُ الأطباء بإنشاء قناة تلفزيونيةٍ تُبَثُّ عبر الأثير لكل الدول، يُقَدِّم فيها علاجاً لجميع الأمراض بوصفات مبتكرة من قِبله لجميع المرضى ودون استثناء، لم تقفْ أمام حنكته وفطنته أيُّ مُعْضِلة، ولو كان تخصصه غير ذي صلة! لم يتردَّدْ هو في تشخيص كل الأمراض في ثوانٍ معدودةٍ وعلى الهواء مباشرة، بل والقضاء على أعتى الأمراض المزمنة والمتقدمة؛ مِن سكر، وضغط، وسرطان بمختلف أنواعه ومستوياته، بل دون جراحة ولا سفك دماء كما يفعل الأطباءُ، وكل هذا على الهواء، برهانٌ ودليل ساطع كالشمس في كبد السماء!

ولك أن تُصدِّقَ أو لا تصدق أن كل هذه الخدمة وقفية، والاتصال بالمجان، ويتم جدولة المواعيد للظهور أمام الجميع، بل إن العديد مِن المؤسسات الخيرية قد دعمتْ هذا الفتح المبين، وباركه العديدُ من المتطوعين! حتى إن السياسيين حنثوا باليمين تصديقاً لهذا الرجل الأمين وما له من كراماتٍ يَشيب لها الجنين إن لم يكن إيمانه به متين.

مع وجود بعض الشركات الداعمة بمقاطعَ دعائيةٍ بين الفقرات تلتزم الحشمة والمصداقية المضاهية لحقيقة القناة، ناهيك عن توفر خدمة الإنترنت على مدار الساعة، وإمكانية الحجز لمن أراد الخصوصية، وقَبول العيادة لجميع البطاقات الائتمانية والشيكات السياحية، وناهيك عن توفر خدمة التوصيل المجاني من وإلى المطار، والاستمتاع بمنتجع الخمسة نجوم، مع ضمان تأكيد الحجز، وعدم الانتظار لحاملي بطاقة العضوية الذهبية! مع الاعتذار المسبق للأثرياء عن

قبول الدعوات الخارجية، فهذه خدمة إنسانية لا تقبَل الأنانية، فكم مِن مريض سيفقد الأمنية بسبب عدم وجود رب البيوت الحانية!

مع انتشار الطب وتوسعه ظهرتْ مدارس متناحرة وأقطاب متنافرة لا تؤمن إلا برأيها، ولا تتبنى إلا خبراتها، وترفض الانصياع وحتى الاستماع للرأي الآخر، بل تجاوز هذا إلى أدلجة الطب، وجَعْلِه تابعاً لسياسيين وتجار وإعلاميين ورجال دين لتحقيق مكاسب لهم، فنزل الطبُّ في بعض الدول إلى أسفل سافلين، وأصبح سلعةً تُرَوَّج في سوق النخاسين وبأرخص الأثمان، كما ظهر الطب بلا دليل والطب الهبيل والطب الهزيل والطب المبني على المستحيل!

لهذه الأسباب وغيرها تحتم ظهورُ تجديد يُقَيِّم ما توصل إليه العلم بكل مصداقية وشفافية، ويُعرض على الجميع بعد أن يُحَدِّد لكل قول دليلاً، ويذكر مدى قوة البرهان في إثبات أو تشكيك أو نفي، هذه هي مدرسة الطب الحديث، مدرسة الطب المبْنِيِّ على البراهين.

جُوبِهَتْ هذه المدرسة وما زالتْ تُجابَه بالعديد من التهم، منها أنها تقتل حدس الطبيب، وتكبّله للتعامل مع المريض وكأنه جهاز أو آلة لا مشاعر لها، ولا اعتبارات لعمرها ومكانها، وكأنها في مَعْزِلٍ عن أي شيء آخر، كما تتردد تساؤلات منها: مَن بيده الحكم بأن خبرة الطبيب أقل أهمية من الأدلة؟ وهل من المنطق تأخير علاج المريض للتأكد من أحدث برهان؟ بل حتى القول: هل يوجد برهان للطبِّ المبني على البراهين؟

ستكون الإجابة سهلة وبسيطة، وهي: هل أنت مُلِمٌّ بما يدور من حولك

مِن تُرَّهات وأكاذيب وجهل ودجل؟ هل يجب السكوت والتغاضي عنها؟ وكيف تتم حماية الممارس الصحي وحماية المريض؟ وكيف نستطيع الرقي بتجاربنا وصقلها بتجارب الآخرين بعد معرفة الأصلح منها وحاجتنا لها؟ وأخيراً: كيف نتطور بخطًى ثابتة ومدروسة للمستقبل؟

تجتمع الإجابات الصحيحة لهذه الأسئلة في: (الطب المبني على البراهين)، والإجابات الخاطئة تجتمع في: (الإنسان عدو ما يجهل).

هذا المذهبُ الجديدُ يجعل أتْباعَهُ في حراك تقدميٍّ مستمرٍّ في أفضل الطرق وأقصرها للوصول إلى أرقى النتائج، لهذا يتطلب هذا المذهب التحري والبحث والتدقيق في المشكلة، مع الإلمام بقوانين اللعب في هذه الأندية الفكرية للوُصول لنفس النتائج باتباع أفضل الطرق، مع تقييم مستمر للنتائج ومقارنتها بغيرها، وتبني أصح الصحيح منها.

ويتضح هنا أن الطب المبني على البراهين ما هو إلا إلمامٌ وتطبيق للبحث العلمي الشامل في كل ميادين حياتنا المهنية، مع قَطْعٍ للطريق وغلق للباب، وتشبيك للسور من المرتزقة والمتسلقين والمشعوذين.

بـيـنـة الـمـدعـي

تم تحويل حالة لنا لزراعة القوقعة بعد أنْ تَمَّ رفع تظلُّم للمقام السامي، مع طلب العلاج في الخارج، من مريضةٍ تؤكد أن هذا الضعف في السمع الذي أصابها ناتجٌ عن خطأٍ طبي وموثق من استشاري يثبت أن الصبغة التي أخذتْها المريضةُ عند إجرائها للأشعة كانت السبب في فقدها للسمع بالكامل في إحدى أذنيها، عندها تواصلنا مع أطباء الأشعة للتأكد من هذا؛ لعدم سماعنا بمثله، وعدم وجود أي إثبات لهذا في محركات البحث لدينا، فأثبت لنا أطباء الأشعة عدم معرفتهم بمثل هذا، وأن الحالات التي تُذْكَر لديهم في المؤتمرات والمجلات كانتْ بالاشتباه في ضَعْف سمع مؤقت في كلتا الأذنين.

هنا نرى أن طبيباً غير مختص غرر بمريض، واتَّهم أحد زملاء المهنة دون دليلٍ، ووثق هذا في أوراق رسميةٍ وأوقد الشحناء والبغضاء في قلب المريض، وأربك علاجه، ناهيك عن تبعات ذلك في تشكيك المجتمع في الطاقم الطبي، ولا عَجَبَ في استقطاب هذه الوجبة الدسمة للإعلاميين لدينا، فلا تكاد صحفنا تخلو يوميّاً من هذه القصص المضحكة المبكية من "الأخطاء الطبية"، ولو استمر الوضع هكذا لأصبحت صفحات الأخطاء الطبية تفوق صفحات الرياضة!

يوجد في السعودية محاكمُ طبية تَفْصِل في القضايا الصحية، فأيُّ عُضو في جسم الإنسان له دية في الشرع، فعلى سبيل المثال فَقْدُ أذنٍ واحدة لها نصف دية النفس، ناهيك عن إرباك العمل، وتشتت أفكار الطبيب المتهم وتشوه سمعته، في المقابل لن يُبْقِي الشرع هذا الأفاك

طليقاً إذا لم يُثبت بالدليل القطعي صدق اتهامه لزميل المهنة، مع ما تؤكد عليه الجهات العليا بعدم تحريض المريض على الطاقم الصحي والرفع للمسؤولين بكل تجاوُز أو مضاعفات للمريض بشكل رسميٍّ، فالساكتُ عن الحقِّ شيطان أخرس.

مع هذه الحربِ الشرسة في الإعلام على الخدمات الصحية، ومع تسارع سوق التأمين ستزدحم هذه المحاكم الطبية بطلبات التعويض، وسوف تتضاعف رسوم التأمين على الأطباء، ومن ثم تتضاعف قيمة الخدمات الطبية، ولن يقبلَ أي تجاوز أو انحرافٍ في مسيرة علاج المريض، وسيكون الحكم بالكتاب والسنة وما توثق علمياً وباستشارة المختصين.

سيكون الطبيبُ الباحث والمطَّلع دائماً في مأمنٍ مِن كل هذا، فهو يتجول بين دول العالم في طائرةٍ تخترق سرعتها حاجز الضوء، وبين أقرانه يتَنَقَّل في مصفحة وحراسة مشددة، ومدججاً ومتسلحاً بكل جديد يحميه من الوقوع فريسة لما غزا مجتمعنا من فكر منحرفٍ لم يسلمْ منه أحد، ناهيك عن تسمم بعض عقول الأطباء والمحامين بهذا الفكر، فكر: "النِّزاعات الطبية".

يقول المصطفى عليه الصلاة والسلام: ((مَن تطبَّب ولا يعلم منه طب فهو ضامن))، ولا يُعرف الطب عند أحد بقدر ما يُعرف عند الباحثين والناشرين والمتحدثين؛ لهذا يكون هؤلاء في مأمنٍ غالباً من التشكيك والمقاضاة والتشهير والقذف والمساومات من بعض المرتزقة، الذين يحرِّضون المريض ويُلبسون عليه الحقائق التي يجهلونها.

حـقـائـق لـسـوابـق

كان مِن المسلمات إعطاء النساء هرمونات تعويضية بعد سِنِّ اليأس؛ لما كان من البدهي أن النساء أقل عُرضة للإصابة بأمراض القلب قبل سن اليأس من الرجال، بينما هذا التفاوت يتلاشى بعد انقطاع الدورة، بالإضافة إلى كون هذه الهرمونات مُقلِّلة لهشاشة العظام، والإصابة بالسرطان، لكن كانت الفاجعة عندما قامتْ دراسة مِن قِبَل ٤٠ مركزاً في أمريكا بمتابعة ما يقارب ٢٥٠٠٠ امرأة يستخدمون هذه الهرمونات كعينةٍ لملايين النساء الذين يأخذون هذا الدواء المسلَّم به على مستوى العالم.

في هذه الدراسة استخدمتْ عينة مشاهدة كانتْ تستلم أدوية كاذبة، دون أن يطَّلِعَ أحد على سرية الدراسة ما عدا اللجنة المتابعة التي أوقفت الدراسة عام ٢٠٠٢ قبل أن تكتملَ؛ حيث إنَّ النتائج لم تسمحْ بمزيد من التأكد مِن أن ضرر هذه الهرمونات جليٌّ بتضاعف حالات نوبات القلب والجلطة الدماغية وسرطان الثدي الخطير، بالإضافة إلى حصوات المرارة وسلس البول والخرف والربو يتجاوز بمراحل فوائدها المتمثلة في هشاشة العظام والإصابة بالسُّكَّري، بل إن نتائج التوقُّف عن أخذ هذه الأدوية أدى إلى رجوع الإصابة بهذه الأمراض الخطيرة للمُعدَّلات الطبيعية.

لو لم تُقَم هذه الدراسة لتواصل مسلسلُ القتل بهذه الأدوية على الملايين من النساء على مستوى العالم، ولربما انقرض الجنسُ النسائي في سنواتٍ مبكرةٍ، هذا أحدُ الأمثلة بوجوب التحقق دوماً مِن كلِّ شيء،

وعدم الاكتفاء بفرضية ولو كانت منطقية، كما كانت هذه الهرمونات التي وصلت إلى المُسَلَّمات.

في ستينيات القرن الماضي ظهَر فتْحٌ كبير باكتشاف دواء مُهَدئ لاضطرابات الحمل يُدعى: (ثاليدومايد) ما لبث أن أصبح الوصفة السحرية، لكن الفاجعة ظهرتْ متأخراً حيث إنَّ العديد من المواليد أُصيبوا بتشوهات كبيرةٍ، كان منها عدم وجود الأطراف أو تشوهها لما يشبه الزعانف، أصيب بذلك أكثر من عشرة آلاف طفل، ومن ثم اقتصر صرف هذا الدواء على علاج الجذام!

سقطتْ طائرة جراح العظام الأمريكي جيمز ستينر عام ١٩٧٦، وتُوُفِّيت زوجته وأبناؤه الثلاثة، أما الرابعُ فقد أُصيب بإصاباتٍ بالغة، قام بإسعاف نفسه وابنه وطلب المساعدة، فقام أحدُهم بتوصيله مع ابنه لأقرب مستشفى والذي كان مُقْفلاً، وعند استدعاء الطبيب المناوب لم يقمْ بما يستحق الموقف من مهنية واهتمامٍ، من ثم ابتكر طريقة إسعاف للإصابات أصبحتْ أحد أهم الدورات التي يتطلبها المستشفى لكل العاملين في قطاع الإسعاف بمختلف فئاتهم، كان لهذه الدورات الفضل في إنقاذ العديد من ضحايا الإصابات وتوحيد طرق علاجهم.

كان الطبيبُ الفرنسي رينيه خجولاً جدّاً، ولم يستطع أن يفحصَ سيدةً بالاستماع إلى قلبها بوضع أذنه على صدرها، فابتكر في عام ١٨١٦ طريقةً مكَّنَتْهُ من الاستماع وبشكل أفضل لدقات القلب، دون الحاجة لإلصاق أذنه بالمريضة، كانتْ بكل بساطة مجموعة مِن الأوراق لُفَّتْ بشكل مخروطي، كان هذا سبباً كبيراً لاستنقاصه، لكن ما لبث أن

أصبحَ أحد العلامات الفارقة للطبيب عن غيره.

أصيب أول مولود لسالي بإصاباتٍ بالغة في الدماغ مع شلل، عندما أُعْطِيَتْ جرعة من دواء الأوكسيتوسن لتنشيط الطلق لديها، دون معرفة آثاره الجانبية على الجنين، لكن هذا كان السبب لولادة جهاز تخطيط نبضات القلب للجنين، والذي بدوره أنقذ العديد مِن الحوامل وأجنتهم من إصابات بليغة.

زخر التاريخ البشريُّ بالكثير من هذه القصص والمآسي التي لحقتْ بالمرضى، ومن المتوقع أن يستمرَّ مسلسل الأخطاء الطبية، وأن يستمرَّ البحث العلمي الدقيق في اكتشافها، والتأكد منها، وإيجاد أفضل الحلول لها، لكن بقدر ما كان العقل البشري مُفَرطاً في هذه الاكتشافات بقدر ما كان مُفْرطاً في إمعان عقله دون رقيب ولا حسيب، وإليك بعض المآسي:

انتهتْ في عام ١٩٧٢ فصول مأساة للخدمات الطبية الأمريكية العامة، حيث قامتْ دراسة ولمدة أربعين سنة على تأثير مرض الزهري على الأمريكيين القاطنين في الأرياف مِن أصول إفريقية، وذلك بتقصي مآلهم إذا لم يتم علاجهم، مع عدم الإفصاح عن حقيقة المرض الذي يحملونه، ومع توفر علاجه في ذلك الوقت إلا أنه تم التغرير بهم وخداعهم؛ لكي يُكْمِلوا التجربة، بل مع تطمينهم للمرضى بحصولهم على علاج مجانيٍّ، أدى هذا إلى تغيُّر كبيرٍ في التشريعات الأمريكية عند القيام بتجارب على البشر بعد أن تم الاعتراف بهذا الخطأ الفظيع.

سجَّل التاريخ قيام الجيش الياباني في الحرب العالمية الثانية بإجراء العديد مِن الأبحاث الحيوية على المعتقلين في الحرب، كان من أشهرها وحدة ٧٣١؛ حيث نقلت الأمراض للأسرى لدراسة تأثير هذه العدوى عليهم، وبتشريحهم أحياء وبدون تخدير؛ للوصول إلى نتائج حقيقية لا تتأثر بالتحلل أو التخدير! شملت هذه الدراسة جنسيات مختلفة، ولم يَسْلَمْ منها نساء ولا أطفال حتى المواليد! كذلك شملت الدراسات أنواعاً أخرى من التعذيب، ومنها تجميد الأطراف لمرحلة الغرغرينا واستئصال الأعضاء الداخلية مِن أمعاء ورئة وكبد، وأجزاء من المخ للتعرف عن قُربٍ بتأثير ذلك على الضحية! اعتذرتْ وما زالتْ تعتذر الحكومة اليابانية عن العديد من الفظائع التي قام بها الجيشُ ولم تعترف بهذه الواقعة.

تجاوزت الخروقات في الأبحاث كل حدود العقل والمنطق والشرف، بل تجاوزت الفطرة السليمة، وحتى أبسط مشاعر الرحمة وأبجديات المعرفة، كما أن الحيوانات والحشرات لم تَسْلَمْ من أنواع الإذلال والتعذيب والقتل.

وختاماً لك أن تصدق أو لا تصدق أن العديد من التجارب أُجْرِيَتْ على العقل البشري والمشاعر الإنسانية وحتى الأديان!

الاقتران بالفئران

بينما يُحارِب الجميع الفئران ويقضي عليها، تقوم المختبرات الطبية بتربيتها وعلاجها، وتسمينها وتدفئتها، وتدريبها وتذليل كل سبل الرفاهية لها، لتكاثرها ومن ثم تكونَ وجبة دسمة للتجارب البحثية.

إن صِغَرها وتشابهها، ورخص العناية بها وقلة مخاطرها، وسرعة توالدها وبساطة ترويضها وعلاجها، وتشابهها بالعديد من الصفات مع البشر، ومعرفة الكثير عنها، من كثرة الأبحاث عليها، ناهيك عن عدم خسارة قتلها أو التخلص منها جَعَلَها أرضاً خصبة للاستثمار المعرفي.

لم تسلَم الفئران من أي نوعٍ من الأبحاث حتى السلوكية منها، فشلت أعصابها، وقَطْعت أطرافها، وتسممت أجسادها، ونقصت مناعتها، وشفطت دمائها، بل أجبرت على الإدمان، واسْتُنْبِتَ فيها السرطان، وتم تغيير جيناتها مع زراعة وتطوير خلاياها الجذعية واستنساخها، ولكن هل كل هذا جنون بشري ليس له حدود؟ أو أن الفأر يستحق كل هذا التعذيب والتمثيل؟

في القرن الثاني الميلادي بدأ العالمُ الإغريقي جالينوس باستخدام الحيوانات في الأبحاث والدراسة، وأظهر العديد من الاكتشافات للبشرية، ولهذا يعرف بأبي التشريح الحيواني، لكن التاريخ سجَّل للعالم العربي المسلم عبدالملك بن زهر اكتشاف المنهج التجريبي للعمليات الجراحية على الحيوان قبل إجرائها على الإنسان.

ولقد شاطرت الحيواناتُ العديد من العلماء في ابتكاراتهم، ولها يعود الفضل في اكتشاف العديد من اللقاحات والأدوية إن لم يكنْ جلُّها، وحتى في الصعود إلى الفضاء كان للحيوان بصمةٌ، أما الآن لا تكاد تخلو جامعةٌ من حظائرَ لحيوانات التجارب يتجاوز استخدام الفئران فيها ٩٠٪ من مجمل الحيوانات، كذلك تقوم بعض المدارس ووزارات الدفاع وشركات الأدوية بهذه التجارب أيضاً.

لم تكن هذه الأمور لتُتْرَك دون حسيب أو رقيب، وهنالك إفراط بشريٌّ ربما يصل بالتضحية بمائة مليون حيوانٍ سنويّاً على مستوى العالم، نعم يُضَحَّى بها في مجال الأبحاث والتي لا تكاد تستثني نوعاً.

يوجد العديدُ من الهيئات المطالبة بحقوق الحيوان، وثني عنان الأبحاث من العبث بإجراء تجارب عَفَا عليها الزمانُ، ومعرفة أن هنالك اختلافات بيولوجية جوهرية لا يمكن بحالٍ إثباتها على البشر، في المقابل تقف المؤسسات التعليمية والصناعية بالتأكيد على استحالة إجراء التجارب على الجمادات للتعرُّف على نتائج البحث من إيجابية وسلبية، وأصعب منها إجراء هذه التجارب مباشرة على البشر؛ ولهذا أصدرت العديد من الدول قوانينَ صارمة للحدِّ من العبث البحثي بالحيوان، وتدريب المختصين بالتعامل معها في هذا المجال، وإصدار رخص لمباشرة هذا العمل لعلماء كبار ذوي سمعة ودرجات علمية عالية، مع التأكيد على احترام ورحمة هذه الحيوانات وتقديم أرقى سُبُل العناية بها.

صحيح أن الحربَ ما زالتْ قائمة بين مَن يعارض هذه الأبحاث على الحيوان، مع مَن يُؤيدها منذ القدم، إلا أن الطريف في الأمر أن ذلك

لم يصل إلى التقاتل بعدُ، بينما يُسَجِّل التاريخ أن التعايش بين الفئتين كان سيدَ الموقف، بل إن اختلاف الآراء لا يفسد للتزاوج قضية، فقد كان أبو وظائف الأعضاء وأمير تشريح الحيوان العالم الفرنسي كلود برنارد متزوجاً من مؤسِّسة أول جمعية مضادة لتشريح الحيوان، والتي انطلقت من فرنسا عام ١٨٨٣!

عند التفكيرِ بإجراء الدراسة على الحيوانات تأكَّد أنك مُلِمٌّ بكل حقوق الحيوان، وأنك قادر على القيام بهذه التجربة، مع مراعاة كل القوانين والتشريعات والمحرمات، وتحت إشراف مباشر من خبير ومطلع على هذه الدساتير، مع أخذ الموافقة الخطية بالتصريح لإجراء هذه التجارب التي لا يمكن إجراؤها على غير الحيوانات، وأن عينة البحث هي أقل عدد ممكن للوصول إلى نتائجَ حسابية صحيحة، وأن الحيوان سيكون في أقل صور المعاناة أثناء وبعد التجربة.

مجلس المؤسسة للأبحاث IRB

في أواخر القرن التاسعَ عشرَ تُوُفِّي أبو الأطباء في التخصص الحديث لجراحة النساء الطبيب الأمريكي جيمز سيمز، بعد أن خلَّد اسمه بالعديد من الأبحاث والابتكارات، ولكن هذا الاسم بَقِيَ خالداً للتاريخ بشكلٍ أكبر، ممثِّلاً لبشاعة العقل البشري إذا أطلق له العنان، فقد قام هذا الطبيبُ بأفظع سلوك وأشنع تفكير، وأخجل بحث، وأقذر جُرْم، دون رقيبٍ ولا حسيبٍ، بل شُجع وكُرِّم ومُجِّد مقابل استهتاره واحتقاره لضحاياه!

لقد قام هذا المجرمُ بالكثير من التجارب على النساء الأرقاء، وأجرى العديد من العمليات دون تخديرٍ ودون أبسط الحقوق بالموافقة أو الرفض، بل تجاوز ذلك إلى حديثي الولادة، مع التفنن في مخرز الخياطة على جماجمهم، ناهيك عن استخدام الهيروين لتطويع ضحاياه!

طموح الإنسان لا حدود له، وقد يُؤَدّي به إلى المخاطرة بحياته، أو بحياة أناس آخرين، وذلك سواء كان بقصدٍ أو غير قصد، دون أن يسترعي أمانة المريض، لهذا تُنشئ المؤسساتُ الصحيةُ مجلساً للأبحاث يتكوَّن من علماء في مجالات مختلفة مثل: الطب البشري، وعلم النفس، وعلم الاجتماع، وذلك للقيام بتمحيص الأبحاث مِن جوانب مختلفة، والتأكد من خُلُوِّها مِن مخاطرَ وأضرار جسدية أو فكرية تلحق بالمريض، أو قد تهدد الفريق القائم بالدراسة.

كما يحرص المجلسُ على التأكُّد من شرح الباحث للمريض الهدفَ مِن

هذا البحث، وطرق الاستفادة منه، كما ينبغي له ذكر الآثار الجانبية التي يُمكن أن تلحق بالمريض جراء مشاركته في هذا البحث، وينبغي في حال الرغبة في المشاركة ألا يلحقَ الشخص المشارك والغير مشارك أي أضرار، أو أن تتأثر الرعاية المقدَّمة له سلباً بسبب ذلك.

بعد التأكُّد مِن كل هذه الجوانب يقوم المجلسُ بإعطاء الموافقة لإجراء البحث أو التجارب على البشر، ومن ثم متابعتها والتأكد من سلامتها مع مراقبة مستمرة ومطالبة بتقرير نهائي عن هذه الدراسة، كما يقدِّم هذا المجلس كل النصائح والتوجيهات والخبرات لجميع الأبحاث بشفافية ومصداقية وحيادية ومساواة.

وليس هذا المجلس لتكبيل وحدِّ الأبحاث كما يتوقع البعض، بل هو يراعي تشجيع المبدعين والمتميزين على إقامة الأبحاث والرقي بالخدمات الصحية.

وتشترط معظمُ المجلات المرموقة الموافقة الخطية من مجلس الأبحاث على إقامة الدراسة البحثية قبل نَشْر الأوراق البحثية المقدمة لهم؛ للتأكد من أن البحث قد تم بعد مراعاة القواعد المنصوص عليها عند القيام بأي دراسة على البشر، وذلك حماية لهم من المساءلات التي ربما يقوم بها حقوقيون.

أما الأمورُ التي ينبغي على الباحث مراعاتها عند التقديم لطلب الموافقة فهي كالآتي:

تعبئة النموذج المخصص على حسب نوع البحث؛ مثال ذلك: دراسة استقرائية أو دراسة استشرافية، أو دراسة لها علاقة بالجينات...).

في حال كون البحث مستقبلياً استشراقياً ينبغي للباحث أن يقدمَ للمتطوعين ورقةً موضحاً فيها موجزَ الغرض من الدراسة، والآثار الجانبية، والداعم، والاستفادة المرجوة من المشاركة، وسرية المعلومات، وبأنه في حين عدم مشاركة المتطوع فلا يلحقه جزاء أو فقدان للمزايا العلاجية.

التوقيع على إقرار بأن الغرض من البحث هو الوُصُول إلى حقيقةٍ علمية جديدة، وليس خدمة جهة معينة.

ينبغي للباحثِ أن يوضحَ للمجلس بأنه مُخَوَّل للنظر واستخراج بيانات المشاركين، والتي ربما تكون شخصية وخاصة مع مراعاة سرية المعلومات، وعدم إفشاء أي أسرار أو بيانات شخصية.

غالباً يطلب المجلس من المتقدم للحصول على الموافقة الآلية أو المنهجية التي يتبعها الباحثُ للوصول إلى النتائج مثل: (جدول البيانات، وأوراق الاستفتاء...).

الالتزام بالموعد الذي يحدده الباحث لإنهاء البحث.

كما ينبغي أيضاً التأكُّد من اكتمال الأوراق المطلوبة عن طريق قائمة المراجعة.

أغلب الأبحاث تتطلب موافقةَ مجلس المؤسسة للأبحاث، ولكن ليس كل بحث يتطلب هذه الطريقة الشاقة والطويلة والمعقدة قبل القيام بالأبحاث، فهناك مشاريع بحثية لا تتوجب موافقة المجلس، منها:

عدم تقديم النتائج في مؤتمرات أو نشرها في المجلات الطبية؛ مثل:

مراجعة ساعات العمل للموظفين أو النشر في الصحف والتلفاز ووسائل التواصل الاجتماعي.

عدم وجود أي مخاطر على المشاركين مثل قياس الوزن.

عدم وجود فئة قد تتعرض للمخاطر؛ كالأطفال، وكبار السن، والحوامل.

توفر المعلومات للعامة، أو استحالة معرفة الفئة المدروسة.

عدم قيام الدراسة على البشر أو الحيوانات؛ مثال ذلك: نشر ورقة عن مراجعة الأبحاث أو التحليل التلوي Meta-Analysis

مِن الجدير بالذكر مع التأكيد عليه وتكراره: أن هذا المجلس لم يوضعْ في المؤسسة للوصاية على الباحثين وتحجيم دورهم وتكبيل خطواتهم، كما يظنُّ بعضُ المبتدئين، بل هو إحدى ركائز البحث التي يجب أن تتوفر قبل القيام بأي عمل بحثي، تذكر أن أغلب المجلات تشترط صورة من خطاب الموافقة من هذا المجلس، وبدون هذا الخطاب لا تقبل الورقة للنشر، وإن كنت من الراغبين في تطوير العلم والرقي به وإجراء البحث العلمي وتعلمه وتعليمه، فليكن إحدى علامات التميز للمستشفى الذي تتقدم إليه هو وجود مجلس للأبحاث.

السرقة العلمية Plagiarism

حضرتُ أكبر المؤتمرات العالمية وفي أكبر القاعات كان هنالك لقاءٌ بين الخبراء، وهو أمتع ما في المؤتمرات؛ حيث تتصارع الأسود في إظهار أحقية كل منهم بالصدارة في مجال النقاش، ويقع على عاتق مدير النقاش اختلاق الاختلاف بينهم وفض النزاع، كانت القاعة تكتظ بالحضور، وكأن الجميع آثروا التخلي عن التقديم في القاعات الأخرى والتوجه إلى حلبة المصارعة.

وضع مدير الحوار صورة من بحث أحد الخبراء على الشاشة، وسأله عن التصنيف الذي ذكره في البحث ويحمل اسمه، فتقدم مزهوّاً بشرح هذا الابتكار الجديد والفتح العالمي الكبير، وبعد أن جلس ظهرت الشريحة الثانية لدراسة سبقتْها بعشر سنوات بتصنيف لا يختلف عن سابقه إلا بشيء واحد، ولكن تتخيل ما هو؟

نعم كان الاختلاف الوحيد أنه يحمل اسم مدير اللقاء! بعد أن صفَّق الحضور للمدير لم يتمالك الخبير نفسه، وخرج يجر أذيال الهزيمة أمام صرخات الاستهجان من الحضور، ولم أرَ هذا الطبيب مرة أخرى في حياتي.

حقيقةً يجهلها الكثيرون، ويقع فيها العديد من المبتدئين ببراءة وحسن نية ولا يعلم أنها تُعَدُّ سرقة! سرقة تتجلى حقيقتها مع تقدم العمر؛ لهذا آمل من أحبتي الباحثين أن يتنبهوا لهذه الحقيقة المُرَّة في وقت مبكر، بل قبل أن يفكروا في كتابة أي مقال علمي، فقد يوصمون بعارٍ لا يُدركون معناه وتوابعه.

لست هنا مُحبطاً للأحبة، ولكني منبهٌ لهم، فتتلخص هذه السرقة في عدم نسب فكرة أو كلمات أو معلومة لصاحبها بقصد، هذه الأمور أصبحتْ مملوكة لأشخاص ومعاهد ومجلات معروفين تحميهم الملكيةُ الفكريةُ، ويملكون جميعهم كل الحق بالتصرف بممتلكاتهم وحمايتها، وتستوجب الأمانة البحثية التحديد بالأقواس والإشارة لهم جميعاً بالتفصيل الكامل، فإن لم يتحقق كل هذا فعلى المؤلف ألا يسطو على ممتلكات غيره، ولو كان له نصيب منها.

يتوقع البعض أن هذه السرقة تقتصر على القصّ واللزق للجُمَل، ولكن الوضعُ أعقد وأبعد من هذا، فالتحليلُ بفكرةٍ سابقةٍ يعد سرقة إذا لم يذكرها مبتكرها، بل إن المعلومة غير العامة والشائعة لا يمكن ذِكْرُها إذا لم ترجعْ لصاحبها بكامل التفاصيل، كما أن إعادة صياغة المقال بطريقة مختلفة تضاهي مقالاً آخر في مُجْمَلِه تعد سرقة علمية، حتى لو أرجعت لصاحبها، ناهيك عن القص واللصق للكلمات دون وضعها بين أقواس، وكتابة المرجع جليّاً واضحاً عن مصدرها يُعَدُّ تطاوُلاً على أملاك الغير، أضف لهذا أن السرقة العلمية تشمل إعادة النشر للمؤلف نفسه؛ حيث إنَّ نشره السابق لا يعطيه كامل الملكية لإعادة تدوير كلماته وأفكاره في مقالات أخرى، دون أن يتبع فيها الحق الكامن للقارئ والمجلة.

تنتشر هذه السرقةُ البحثية بين المبتدئين والمتعجلين للنشر، ومن لا يُتقن لغة التأليف، ومَن يصعب عليه البحث، فالمبتدئ قد لا يعلم عن الحقوق الأدبية والملكية الفكرية، والمتعجلون قد لا يتأكدون من تسجيل الحقوق ونسبتها إلى أصحابها، أمَّا من لا يتقن اللغة فيتوقع أن اللصق واللزق للكلمات والجمل لن يكونَ واضحاً، وقد لا يدري أنه قد يكرر

غلطاً لغويّاً أو مطبعيّاً لا يخفى على أحدٍ أو يكرر تناغماً حرفيّاً لا يقدر عليه إلا الضالعون في اللغة، وهو أيضاً قد لا يخفى على أحد، أما من يصعب عليه البحث فليس علاجُه السرقة، بل التدريب والتعليم والتأهيل.

قد لا يعلم هؤلاء البسطاء عن وجود العديد من البرامج الحاسوبية والمواقع في الشبكة العنكبوتية القادرة على كَشْف هذه الممارسات، بل إن منها ما هو بالمجان، ومنها ما يعطي نسبة السرقة في أي مقال وبسرعة ودقة عاليةٍ.

نعم لم تَعُد السرقة العلمية والقرصنة الفكرية قادرةً على مواكبة التقنية الحديثة؛ لهذا يجب عدم التهاوُن في هذه المسألة، والتذكير بها وتعليمها للمبتدئين وللطلبة في مراحلَ متقدمةٍ من التعليم، فالوقايةُ خيرٌ من الفضيحة، كما أن العديد من مواقع الإنترنت تقوم بالتدقيق اللغوي وحتى الفكري مِن قِبَل خبراء متمرسين، وبسعر زهيدٍ وخلال فترة قصيرة.

غسيل الأفكار الذي لا يقل فتكاً عن غسيل الأموال أصبح في غاية الخطورة على مجتمع الأبحاث، وبقدر ما ينصح كل باحث على الابتكار والتطوير والإثراء بقدر ما يُحذر من الفكر المتطرف والمتسلق والمرتفع على أكتاف الغير، وكما تقيم الدول جيوشاً لمافيا غسيل الأموال تقيم المجلات فرقاً من الصاعقة في غاية التدريب والتمرس والتي تنظر إلى الجميع بعين الريبة، وخاصة في كل من يتجاوز نشره المعتاد، مع عدم توفر رصيد سابق يعتد به أو مقومات البحث له وعدم معرفة الناس له، ناهيك عن بقاء بصمات على السرقة مهما حاول الشخص إخفاءها.

فـكـرة لـلـزواج

كنتُ في سنتي الرابعة في برنامج الزمالة الكندية أتَطَلَّع إلى معرفة حركة عظمة الركاب، وكيف يمكن فك أحجية السمع بمجرد فتح ثغرة في قاعدة هذا العظم، ومن ثم وضع توصيلة لنقل الصوت للأذن الداخلية، قمتُ بنحت الأذن الداخلية وعظمة الركاب لأصغر حجم ممكن؛ لكي أتمكن مِن وضْعِها في قالب متناهي الصغر يدخل في جهاز الأشعة المقطعية يظهر العينة بتفاصيل في غاية الدقة، وذلك لما يقوم به من تقطيع في جميع المحاور وبسُمك ٤ مايكرومتر.

بعد ظهور الصور قمتُ بإدخالها على برنامج حاسوبي يظهر حركة الأجسام عند ترددات مختلفة، لكن ما أبهرني بحقٍّ هو اكتشاف أن قاعدة عظمة الركاب تشبه إلا حدٍّ كبير راحة القدم وكأنها طبعة قدم في طين لازب يتشكل فيه أدق التفاصيل.

كنت على وشك فتح كبير في مجال الطب، إلا أنَّ ليلة سوداء أخرجتْ صخرة كأداء بها أحفورة حطَّمَتْ كل أحلامي بفكرة عذراء، نعم أحضر لي المشرف أحفورة من وسط كتب قديمة، مقال نشر باللغة الألمانية قبل قرنٍ من الزمن يظهر ما توصل إليه غيري بأبسط التقنيات ونفس النتائج، نشرتُ البحث، وذكرتُ فيه أن تطابق الاكتشافات لا يفسد للحق قضية، بل كانتْ تأكيداً لما توصلتُ إليه بطرق مختلفة وتنويراً للمهتمين بحقيقةٍ غابت كل هذه السنين.

الفكرة البحثية بكل بساطة هي مُعضلة مهمة وجديدة تحتاج إلى إجابة صحيحة باستخدام طرق الحل المعتبرة، فلكي ينشر أي بحث يجب أن يكون دراسة لمعضلة، فإن لم تكن معضلة فلا داعي لهدْر الوقت والمال عليها، كما يجب أن تكون مهمة؛ حيث إنَّ الأهمية هي من سوف تسوق لهذا المقال للقبول عند القارئ، ناهيك عن رفضه لما أكل الدهر عليه وشرب من أفكار قديمة مستهلكة مجترة.

هنالك العديدُ مِن الأفكار التي تظهر أثناء قيامك بالبحث، بل إن منها ما يكون أفضل مِن فكرة البحث، وقد يترك الباحث فكرته أو يُؤَجِّلها لاكتشافه ما هو خير منها، كما أن العديد من المؤتمراتِ والجمعيات والكتب والمقالات السابقة تعجُّ بالأفكار، وتزكي الأولى منها، بل لا يكاد يخلو بحث منشورٌ من وضع توصية للأبحاث في المستقبل، كما أن العديد من الأفكار ما زالت حبيسة الجدران، فلم يكتب لها الإفراج بعدُ لعدم تمكن مكتشفيها في وقتهم مِن دراستها والتحقق منها، وتذكَّر أنه لا يكاد يكون هنالك اكتشافٌ إلا ويظهر له المشككون بوجود مَن قام بالتحدث عنها مسبقاً.

كما أنَّ البعض الآخر يتوقع أن فكرة البحث لا يُمكن أن تتنزل إلا على الخبراء وكبار السن، وهذا أيضاً غير صحيح، فالباحثُ الجديدُ قد يكون أفضل من يشكك في كل شيء، ويبحث عن حقيقة ما يُمارَس، بينما القدماء قد يكونون أدخلوا أعينهم في منظار مكبر للذرات، ولم يبصروا ما يحيط بها من أجرام سماوية وحقائق تضاهي الأفلاك، ولعل هذه الاكتشافات كانتْ صعبة المنال بسبب عدم توفر التقنية في عصور تصديقهم بهذه الحقائق؛ لهذا كان من الأفضل

أن يختلط الحماس والمعرفة بتقنية العصر عند اليافعين، بما يملكه الخبراء مِن درايةٍ بصغار الأمور، وبهذا ترسم لوحة بحثيةً تجمع المعالم بالتفاصيل، وتنفخ الروح في جسد الفكرة.

تقع الفكرةُ في بعض المجتمعات ضَحِيَّةً للإفراط والتفريط، ومن التفريط تجاهل كل الأفكار واستنقاصها أو استصعابها، فيستحيل على البعض إيجاد فكرة بحثية، وكأنه حامل لقنديل علاء الدين، ولم تواجهه أي صعوبة أو يقف أمامه أي استفسار، ولم تنهكه أي مضاعفات، وجميع مرضاه ينعمون بالسعادة والشفاء الكامل، بل ليس لديهم أيضاً أي استفسارات، ولا يرغبون في أي معلومات موثقة، كما أن إدارة المستشفى قد فرشتْ لهم الطريق بالحرير، فلا ترفض لهم طلباً، مثل هؤلاء الأطباء ما زالوا في مرحلة الشرنقة خامدين، ولعباءة أسلافهم متوشحين.

مِن الإفراط الاستحواذ على كل شاردة وواردة، وتكبيلها ضد الغير بوضع اليد، فلا وأَلْفُ لا لتبني أي فكرة وعدم البحث والتحري والتدقيق والسؤال والاستفسار عنها، بل والتنبؤ بما قد تؤول إليه مع تثمينها والالتزام التام بها، ومن ثم نشرها، تذكر: (إذا لم تنشرها باسمك فليستْ فكرتك)، كالمُنبَتّ في الأبحاث لا فكرة نشر، ولا قلماً أبقى، يتشوق للأفكار ويغازلها، ومن ثم يهجرها ويهجوها، ويَتَطَلَّع لغيرها عند مواجهة أول صعوبة أو لمجرد وجود فكرة أخرى، هذا المنبت يعيش ويموت أعزب غير قادر على تحمل المسؤولية، وترفضه كل فكرة محترمة بسبب عيونه الزائغة.

بعد معرفة ما هي الفكرة، يأتي السؤال: كيف نقترن بها؟

للتشويق والتسهيل، فالفكرةُ هي فتاة يافعة تتخطَّفُها الأبصارُ؛ أملاً في قبولها للخطبة، يتبعها مِلكة وخاتمتها زواج وأسرة وأولاد، ويكون الزواج يوم صدور الصك الشرعي بموافقة المؤسسة العلمية، ويكون المولود البكر هو المقال الأول للفكرة، والأحفاد هم مَن استشهد بهذا البحث، بهذا يكون الاقترانُ البحثي قسمة ونصيباً وإمساكاً بمعروف أو تسريحاً بإحسان.

من الباحثين مَن يخطب عشرات الأفكار في وقت واحدٍ، فتجده ضائعَ الوقت بين فكرة وأخرى، لا يعلم أين توقف مع إحداها، وكيف سيكمل مع الأخرى، فينتهي به المطافُ بتطليق الأفكار أو يذرها كالمعلقة، غير آبهٍ بها أو ما لها من تبعات، لقد شرع الإسلامُ الزواج بأربعة فقط لحكمة، فلا تزيد عن نكاح أربعة أفكار في آن واحدٍ، حتى تتمكن من إنهائها ونشرها، وإعطاء كل منها حقها الكامل.

قديماً كان يُقال: (البنت محيرة يا عم، ودونها خشم البندق)، فلا البنت قابلة بابن عمها، ولا يَسْمَح هو لها بالزواج، ومن العجيب الغريب تعليق البعض لأفكار يدَّعون أنها لهم من باب: "من سبق لبق"، بالمقابل لم يقوموا بإنهائها بالبحث والنشر، ولم يسمحوا لغيرهم بالاقتران بها لزواجها العرفي منهم!

أخبرني صديق صدوق أنه ومنذ نعومة أظفاره في قسمه وهو يسمع أن أحد زملائه قد اقترن بفكرة، والآن هو على أبواب التقاعد ولم ينتهِ من نشرها بعدُ، وليس له وريثٌ، ولا يرغب أحد أن يقترنَ بها في سن اليأس!

عندما تودُّ خطبة فكرة تأكَّدْ مِن كل شيء عنها بقَدْرِ ما تتأكد مِن أنك ستكون فارسَ أحلامها القادر على إسعادها أكثر من غيرك، وأن اقتناعك بها هو سبيلك لإيصالها بر النجاة قبل غيرها، في مقال ينشر مع تقبل لكل الصعاب، بل وقبولك بالانسحاب إذا وَجَدَتْ هي مَن هو خير منك قادرٌ على إسعادها أكثر أو أسرع منك، فأنت تبحث عن حقيقة إسعادها إن كنتَ صادقاً في حبك، ولست تبحث أن تكون أنت الحقيقة.

يقال: (ابنة العم أصبر، وابنة الغريب أنجب)؛ لهذا يُفضل البعض الاقتران بأفكار الأقارب، وخاصة في بداية حياته البحثية، وليس هذا عيباً؛ ففيه الكثير من الدعم والتشجيع والتواصل والتنازل والصبر والاحترام والتقدير، إلا أنه قد لا يخلو من التدخلات والتبعات وحتى الوصاية، وقد يتبعه نزاعٌ وقطيعة وجفاء، ولهذا يقال: (الأقارب عقارب)!

وقد يعرض عليك أحدهم بنات أفكاره من باب: (اخطبْ لبنتك ولا تخطبْ لولدك)، فإن لم تستحسن الفكرة وتستحسن أباها فقد يكون الرد المؤدب لهذا الإقحام هو: إنني خائف جدّاً ألا أكون على قدر هذه الثقة، كما أنني لست من مقامها، أو من تَتَطَلَّع إليه في إسعاد ابنتك، ناهيك أني عزيز نفس، ولا أرضى أن يصرف عليَّ أحدٌ.

تذكر أن العرق دساس، فارأب بنفسك عن أي فكرة بموروث قد يفسد عليك مستقبلك ومستقبل أولادك، وتذكرْ أن جميع الأسر لا تخلو مِن مَوْرُوثٍ حسباً ونسباً بقدر أنها لا تخلو من أمراض وتشوهات، تقل وتضمحل بتزاوج الأفكار البعيدة.

الـفرضـيـة الـمُـرضـيـة

تقوم فكرة الطبيب الإنجليزي دارون على أن: (الإنسان مشابه للقرد)، ومن ثم سجل فرضية: (الإنسان والقرد من أصل واحد)، هذه الفرضية التي لم يتمكن أحدٌ من إثباتها مع مرور ما يزيد على القرن من الزمان، أصبحتْ قانوناً قطعيّاً يُؤمن به جل العلماء، ويُقدَّم للطلبة في المدارس الابتدائية كإحدى العقائد الربانية التي لا تقبل إلا التصديق والإيمان والتوحيد، ومِن المخجل جدّاً في تاريخ البشَريَّة قبول هذه الفرضية دون اختبارٍ ولا تمحيصٍ ولا تشكيكٍ ولكل هذه المدة، مع منافاتها لأبجديات البحث العلمي.

الفرضيةُ هي المحطة الأولى للفكرة تَتَمَثَّل في مقترح قابل لنقل الفكرة للمحطة الثانية، وهي التساؤل البحثي، وبزوغ الفكرة يحتاج إلى فرضية أو العديد من الفرضيات التي تفسرها وتميزها عن غيرها وتبرز معالمها، وتقوم الفرضيةُ البسيطة على متغيرين رئيسيين: أحدهما مستقل، والثاني تابع، وتوجد العديد من الفرضيات البحثية والتي تبنى على علاقات مختلفة بين المتغيرين، فإما أن تكون الفرضية منفية بعدم وجود أي علاقة، أو تكون ثبوتية بوجود علاقة طردية أو عكسية.

والفرضيةُ المشهورةُ هي فرضية النفي، أو ما يعرف بفرضية العدم Null، والتي تقوم على أن الفرق بين مجموعتي التجربة والمشاهدة لا يعدو أن يكون بمحض الصدفة بعد إجراء الاختبارات الإحصائية عليها، فتكون نهاية البحث قبول فرضية النفي، عندما ترفض فرضية

النفي، فهذا يعني أن البحث تَوَصَّل إلى نتيجة حسابية تؤكِّد أن الفرق بين مجموعتي البحث والمشاهدة لم يكنْ ناتجاً عن الصدفة.

يشترط في الفرضيَّات أن تكون بسيطة وواضحة وجلية، وذا أهمية للفكرة البحثية ومنطقية وعقلانية عند الجمهور، مع وجود بعض الحقائق التي تدعمها، فالخيال الجموح في الفرضيات لا يَقبل به أحدٌ إلا إذا كان له مبرر منطقي، كما يشترط في الفرضية أن تكون قابلة للاختبار والتمحيص.

تبدأ الفرضيةُ بتخمين ذكي، أو ملاحظة دقيقة، أو استنباط موثق أو منطق عقلاني، يتبع ذلك التأكد أن هذه الفرضية يمكن التحقق منها بسؤال، عندها يمكن تقبُّلها بشكل مؤقت حتى تثبتَ صحتها من بطلانها، لهذا فهي عملية فكريةٌ ديناميكية متسارعة. قد تبحث الفرضية في حقيقة الفكرة، أو في مسبباتها، أو في علاقتها بغيرها، أو في نتائجها من مكاسبَ ومضاعفاتها.

وتحتاج الفرضيةُ إلى المعرفة والاطلاع والخبرة، وكلما تعمق هذا الثلاثي الجذري للفرضية ظهر الساق قويّاً متيناً قابلاً للارتفاع وللتصديق ومرَحَّباً به، غيرَ أن بعض الأبحاث لا تشمل الفرضيات، ومنها البحث المسحي البسيط، ومراجعة الأبحاث، وتسجيل الحالات الفريدة؛ لهذا تُعَدُّ أقل تقديراً واعترافاً في الأوساط العلمية، ومن هنا يظهر الفعل السحري للفرضية، وقدرتها على الرفع من شأن الدراسات؛ لكونها إضافة جوهرية للمعرفة البشَريَّة.

ولقوة هذا المنهج البحثي فقد تشابه معه المنهج التشريعي في سن

اللوائح القانونية لكل مُستجدَّات العصر في العديد من الدول للإباحة والتحريم والحقوق، حيث إنَّ التشريع يبدأ بالفرضية، ثُم يرتفع إلى الحقيقة، يليها النظرية، ثُم القانون. هذا التدرُّج المدْرُوس والمتأني يقوي التشريعات ويطيل عمرها، وتبقى اللبنة الأولى وحجر الأساس هي: الفرضية.

السـؤال الـمـجـاب

كان كثيرَ الأسئلة لكلِّ شاردةٍ وواردة، بل قام منذ صغره بالعديد من التجارب، منها ما كان على الفئران، ومنها ما كان على البشر، فقد تساءل يوماً عن سبب تحليق الطيور في السماء، فأشرب صديقه الكثير من الغازات ليجعله أخف من الهواء فيطير! وذات يوم أحضر لوالدته رسالة من المدرسة، فبكتْ والدته عند قراءتها، وقالت له: تقول المدرسة: إن ذكاءك يفوق أقرانك؛ لهذا عليك أن تبقى في المنزل وتقوم هي بتعليمك! بعد وفاة والدته وجَد الرسالة، وقد كُتب فيها: (ابنك غبي جدّاً، لهذا أبقيه في المنزل)، فكتب في مذكراته: (أدسون كان غبيّاً جدّاً، ولكن بفضل والدته الرائعة تحوَّل إلى عبقري)، نعم هو توماس أدسون الذي جنَّن العالم بأسئلته التي لا تنتهي منذ نعومة أظفاره وحتى بعد مماته.

السؤالُ البحثي للفكرة هو الاستفسار عن الفرضية لحصد الإجابة الصحيحة لهذه الأحجية باستخدام طرق الحل المعتبرة، من هنا يتضح كيف لفكرة واحدة أن تولدَ العديد من الفرضيات، والتي قد تصل لعدة إجابات جديدة تُوَضِّح الفكرة من زوايا مختلفة لتظهرَ لنا أكثر وضوحاً بأبعادها الأربعة.

لكي يُنشر أي بحث يجب أن يكون دراسة لمعضلة بسؤال واضح يحاكي اللغز، كما يجب أن تكونَ مهمة ومشوقة؛ حيث إنَّ الأهمية والتشويق لهذه الفزورة هي من سوف يسوق لهذا المقال للقبول عند القارئ، وتذكَّرْ أن السؤال يمثل حلقة في سلسلة البحث، لهذا يجب

أن يتماشى مع من سبقه ومن لحق به، وقد تكون حلقة السؤال هي الحلقة الضعيفة التي تسقط العِقد فيتناثر.

يتوقع بعضُ الباحثين الجُدُد أن جميع الأهداف قد سجلتْ، وجميع الأسئلة قد استنفذتْ ولم يعد هنالك أي شيء يستحق البحث في هذا الوقت الضائع لمباراة محسومة مسبقاً، وهذا أكبر دليل على غياب الجمهور، وهذه النظرةُ التشاؤمية يناقضها الواقع المرير، فإن ما يتناقل بين اللاعبين على أرض الملعب غير مشاهد، ولم يتساءل أحد لأي الفريقين ألعب؟ وعلى ماذا نتحاور؟ وأين الهدف؟ بدون مبالغة لا يوجد هدف واحد طبيٌّ قد اتضحت قوائمه للتسجيل، أو امتنعت شباكه من الاختراق بأسئلة بدهية.

إذا كنتَ مِن المتطلعين لسؤالٍ مُعَقَّدٍ أن يحصد جائزة نوبل، فتلحف جيداً عند النوم، السؤال يجب أن يكون جديداً مفيداً بقدر ما يكون واضحاً وسهلاً ممتنعاً، أما إذا كان السؤال كالجذر متعمقاً ومتشعباً ومتشابكاً فقد ترسخ في أرض يستحيل استخراجه منها، ليصل إلى مائدة المجلة ويستلذ به القراء.

من أبجديات السؤال: ألا تكون الإجابة بدهية أو معلومة ساذجة، فقد طوى أبو حنيفة قدميه مستحياً من شيخ كبير التحق بمجلسه، وعندما سأل ذلك العجوز: ما حكم الصلاة إذا لم تطلع الشمس؟ رد أبو حنيفة: «آن لأبي حنيفة أن يمد رجليه»!

صحيح لا يوجد سؤال غبي، لكن الأسئلة تتفاوت في الذكاء؛ لهذا من الأفضل التفكير مليّاً في صياغة السؤال، وكأنه صياغة لجوهرة ثمينة

يتطلع الجميع إليها بكل إعجاب، بدلاً مِن أن يمدوا أرجلهم ويطؤوا عليها.

القيل والقال وكثرة السؤال لغير الله مذلة، لكن يستثنى من هذه القاعدة سؤال الأبحاث، فهو مَفْخَرةٌ وعزة ومكرمة، تذكَّرْ أن الذهب كان تراباً يداس بالأقدام، ولكن حرقه وتصفيته جَعَلَهُ فوق رأس الملكات، فلا تحرم السؤال الثمين من كانون النقد وغربال الحقد، بعرضه على الجميع قبل التسرع بالبحث عن إجابةٍ لا تستحق السؤال، أو سؤال لا يستحق الإجابة.

قـواعـد الـبـيـانـات

أرسلتُ بريداً لأحد أصدقائي أبارك له نشره لمقال في مجلةٍ راقية، فكان ردُّه صادماً بأنْ لامني بتعقيد الرد من قبلي كمحكمٍ، وتأخير نشر المقال، ظنّاً منه أنني على دراية بهذا المقال، وقد وافقتُ مُؤخراً على نشره بعد أن التزم بملاحظاتي، فقدمتُ له الأيمان المغلظة بأني لم أحَكمْ مقالَه، فصارحني باستغرابه عن معرفتي بنشر المقال قبل أن يعلمَ هو، فأخبرته أنني مشترك في خدمة التعرف السريع بأحدث المقالات والتي توفرها PubMed.

هنالك العديد من قواعد البيانات في الشبكة العنكبوتية والتي توفر العديد من الخدمات للباحثين، ولم يَعُدْ لأحد الغنى عنها، فهي تتميز بالشمولية والسهولة والسرعة، ناهيك عن العديد من الخدمات التي يتميز بعضها عن بعض، كما تتوافق هذه المواقع مع برامج تنسيق المراجع مثل Reference-Manager ، وبرنامج EndNote ليتمكن الباحث من مراجعتها في عدم توفر الاتصال بالشبكة.

أنصح الجميع بعدم الاكتفاء على قاعدة واحدة، بل عليه أن يُنَوِّعَ مصادر الدخل المعرفي لديه، كما يجب عليه ألا يكتفي بقراءة الملخصات البحثية دون الرجوع للمقالات الكاملة وقراءتها وتمحيصها، والتثبت من نتائجها ومحدوديتها ونصائحها.

تذكَّرْ أن لكل بحثٍ كلمات مفتاحية Key-Words تُسهل للباحث عن المقالِ الوُصُول إليه بسرعة؛ لهذا عندما تضع كلمات المفتاح في مقالك تأكَّدْ من كونها ضمن المعترف به مسبقاً، فقد يكون لها مفردات

أخرى مشابهة هي ما تم اعتماده، ويمكن التعرف عليها في قائمة Mesh في موقع PubMed على سبيل المثال، كما يمكن وضع أهم الكلمات، ومن ثم تضييق الخناق بإضافة كلمات أو تحدد الخيارات من سنوات أو لغات أو تجارب بحسب الحاجة لمواجهة الكم الهائل من الأبحاث.

توفر بعض محركات البحث القدرة على الوُصُول إلى البحث المنشور كاملاً، إما بسبب تبرع المجلة بذلك تسويقاً لها، أو أن محرك البحث له اتفاقية مسبقة مع هذه المجلات ومع طرف ثالث مثل الجامعات والشركات لتتوفر هذه الخدمة السريعة والراقية لمنسوبيهم، وإذا كنت ممن لديه هذه الخدمة فقد عُبِّد لك طريق البحث بالزل الأحمر، ورصف لك بالورد المعطر، فزكاة هذا التذليل والتمهيد لطريق وعر شاقٍ هو مساعدة الفقراء والمساكين الذين لا يملكون قوت يومهم، وينتظرون مكتبات مراجعهم تبحث في إمكانية التصدق عليهم في إيجاد هذا المقال أو ذاك.

يعد موقع PubMed أشهر المواقع البحثية، ومنجماً كبيراً للمعلومات، كما يحتوي على العديد من الخدمات، وبه العديد من الأفلام التي تشرح سبل الاستفادة القصوى من هذا الموقع، والتي لا يتسع المقام والمقال لذكرها جميعاً، ولعل من أثمن ما يوفره هذا الموقعُ هو خاصية التعرف على أحدث الأبحاث في مجال معين؛ بحيث يتم إرسال بريد بشكل دوري عن هذه المستجدات، وباستطاعة الباحث أن يحدده بالزمان والفترة التي يفضلها.

كذلك موقع Ovid فهو موقع مشهور أيضاً، ويتطلب اشتراكاً برسوم دورية، ويوفر أيضاً العديد من عناصر البحث، والعديد من المقالات الكاملة.

محركات البحث العامة ومواقع التواصل الاجتماعية منجمٌ كبيرٌ لا يقل أهمية في تزويد الباحث بالعديد من المعلومات المفيدة، وتزيد تشويقه عن بحثه بمعرفة ثقافة المجتمع عنه، بل قد تحوي شيئاً من المقالات التي لم يحالفها الحظ في الظهور في محركات البحث المهنية، ناهيك عن توفر العديد من الصور والأفلام التي تزيد من المخزون المعرفي للباحث، تذكر أن هذه المواقع تبحث عن الرِّبح المالي بفتح المضاربة التجارية، واستغلال الدعايات الإعلانية، وترتب نتائجها طبقاً لفوائدها المالية.

أغمض أخي الغزيز عينيك لبرهةٍ، وتخيَّلْ معي مِقدار العناء وهدر الوقت والمشقة التي كان لزاماً أن يبذلها السابقون عند إجراء البحث، ومشقة إيجاد الكتب والمجلات المتهالكة، بل والبحث فيها، وتخيَّلْ أين ومتى؟ في المكتبات المقفلة أكثر مما هي مفتوحة وفي أوقات انشغال الكثير بعملهم مع محدودية المصادر وندرتها أحياناً واستحالتها أحياناً أخرى.

تجميع الكلاكيع

قَدِم إليَّ أحد الباحثين بمشروع بحث متميز قد حظي بدعم مالي، وتم تقييمه والإشادة به من خبراء أجانب، إلا أنني اعتذرتُ عن المشاركة فيه؛ حيث إنَّ البحث يقوم على دراسة نتائج زراعة القوقعة على كبار السن، وجُلُّ مَن أجري ويُجرى له هذه العملية من الأطفال على مستوى السعودية.

تجميع النتائج قد يكون الاستيقاظ المبكر من حلم جميل، فبعدَ وضْعِ الرسومات والتخطيطات لمنزل جميل بحديقة غناء وفناء، يجد الباحث نفسه على أرض صبخاء تغطي صخرة صماء في عقبة كَأْداء، لهذا من الأفضل معرفة المجتمع الذي يستطيع الباحث دراسته، فليس كل ما يشد الباحث من أفكارٍ جذابة في المجلات أو المؤتمرات يمكن البحث فيه، مثال ذلك: تأثير شرب الكحول على المتقاعدين في السعودية، مثل هذه الدراسة لن تجدَ لها متطوعاً واحداً ليشارك فيها، حتى لو انتظر الباحث عقوداً، بينما لو أجريت في الغرب أو الشرق لتمكنَ الباحث من إنهاء الدراسة في أسبوع!

تفتقد العديد من المستشفيات في السعودية وحتى التخصصية والجامعية منها لأبسط قوائم المعلومات، فيكون حصرُ المرضى للدراسة البحثية معاناة، واستخلاص النتائج من الملفات كرامات، لكن مع استخدام الملفات الإلكترونية والأشعة الرقمية أصبح من السهل بمكانٍ القيام بأي دراسة وفي وقت قياسي، وأصبح العديد من الباحثين الكبار في السِّنِّ يرددون: "ألا ليت الشباب يعود يوماً".

كن حريصاً على تجميع أكبر قدر ممكنٍ مِن المعلومات من الملف، أو بالتواصل مع المريض، أو أي مصدر، قد تكون المعلومات الإضافية ما يفسر بعض النتائج الغريبة، وقد تكون هذه المعلوماتُ نواةً لدراسة أكبر وأفضل، لا تستهِن أو تستنقصْ أي معلومة، بل حاولْ أن تجمعها وتُقَيمها وتحللها وتستثمرها، وتذكَّرْ أنك ستقدم هذا البحث في مؤتمرٍ، وقد يكون السؤال فيما لم يخطر لك على بال، كما أن نشرك للبحث قد يجعلك هدفاً لدراسة متعددة المراكز، وعندها يكون من السهل تقديم ما لديك من معلومات ثانوية، قد تكون مربط الفرس لهذه الدراسة الكبيرة.

قبل أن تجمعَ النتائج ضَعْ لك خطة لوجستية تضمن لك تدفقاً سلساً وسريعاً وآمناً للإمداد والتموين والتسليح والإخلاء، كما هو الحال قبل دخول أرض المعركة، فهذه الخطة المسبقة تراعي فرز هذه المعلومات وتحليلها، بل حتى الجداول والأشكال البيانية والصور التوضيحية التي تأمل في نشرها، فهذا سيُشَوِّقك أكثر، ويسهل ويسرع عليك الانتهاء من أكثر المحطات مللاً وأطولها وقتاً وأرهقها جسداً، هذا إذا لم يكن أكثرها غباراً وكتمة عند مراجعة الملفات القديمة في دهاليز وأقبية المستشفى بعد ساعات الدوام.

سيكون مِن المريح أن تضعَ لك نموذجاً موحداً كبير الحجم، وأفضل نموذج هو جدول يَحْوِي كل العناصر التي تبحث عنها، لكي لا تنسى شيئاً منها، ولكي تسهل عليك إدخال المعلومات وإرسالها للفريق المشارك وللمحلل الإحصائي الذي من الأفضل استشارته في أفضل وسيلة لجمع النتائج بسؤال مهذب: "كيف تود أن أقدِّمَ لك هذه النتائج؟".

سارعْ بإدخال هذه المعلومات في الحاسب لديك وإرسالها لِمَنْ تُحب، أو تصويرها بالجوال، لن تكونَ سعيداً بالقيام مرة أخرى بتجميع النتائج.

من الفِطنة أن تحسبَ حساباً لكل شيء قبل القيام به، فلن تكونَ كل النتائج متوفِّرةً، بل تحتاج إلى التفكير في إيجاد المعلومة بخياراتٍ متعددةٍ، مع التفكير في البديل وملاءمته كخيار تعويضي، كما يجب تحديد ساعة الصفر في بداية العمل، والساعة المرجعية عند كل مريض للمساواة بينهم؛ كيوم دخول المستشفى، ومدة المتابعة، وسبب فقدان النتيجة.

وهنا همسة في أذن الشباب: لقد تَوَفَّرَتْ لكم كل سُبُل الرفاهية والتسلية والسرعة في إنجاز الأبحاث فلا تستنقصوا أو تستهتروا بما قدمه السابقون من أبحاث كمّاً ونوعاً، فقد نحتوا حروفها على صخور صلداء، وكان عليهم مراجعة الملفات صفحة صفحة وكلمة كلمة؛ لاستخراج شوكة من جبال القش في ليلة ممطرة.

الـعــنــوان

عندما قَدِمتُ من كندا ذهبت ابنتي للمدرسة لكي يُقَيم مستواها، ويحدد لها السنة المناسبة، ومن ضمن التقييم كانت اللغة الإنجليزية، فسألتْها المعلمةُ باللغة الإنجليزية: ما اسمك؟ فردَّتْ بكل براءة: رُؤَى، فغضبت المعلمة، وقالتْ: أريد جملة كاملة، ثم سألتها: كم عمرك؟ فقالتْ: ٧ سنوات، فاشتاطت المعلمة غضباً، وردتْ: أريد جملة كاملة.

كانت بُنَيتي تتقن اللغة أفضل مني، وبلكنة كندية، لكنها كانت في حيرة مِن أمرها بالرد بجملة كاملة، فلم تتدرب في كندا بالرد: (اسمي هو رؤى، وعمري هو ٧ سنوات) لكي تكون جملاً كاملة. كادت ابنتي أن تعيد ثانية ابتدائي في السعودية؛ لأنها لا تعلم كيف تتكلم اللغة الإنجليزية بالطريقة التعليمية الفصحى التي تُطَبَّق في مدارسنا، لكن رحمة الله تغشتْ هذه المدرسة عندما تجاذبتْ أطراف الحديث مع هذه الطفلة الصغيرة.

هذه القصةُ مشابهةٌ لعنوان المقال، فالبعضُ يعاني ويكابد في إنشاء جملة مفيدة متكاملة العناصر مِن فعل وفاعل ومفعول به أول وثانٍ، مع ضمير متصل لمبتدأ وخبر يضاف إلى العنوان، العنوان بكل بساطة كلمات توصل للمكان بأسرع الأزمان، ولا يحتاج هذا العنوان إلى جملة كاملة من المستحيل أن توصل الباحث عنه دون عناء واستفسار واستشارة وتضرع ودعاء.

تأكَّدْ أن العنوان جذابٌ وواضح وبكلمات مألوفة خالية من أي تكلف أو اختصار وواسعة الانتشار لكي يظهر المقال في أبسط بحث عنه، كما يجب أن يكون العنوان مختصراً بأقل عدد من الكلمات، خالياً من الكلمات العامية والمعقدة، مع إبراز ما يتميز به البحث من فكرةٍ، أو فرضية، أو سؤال، أو طريقة، ويمكن تكرار العنوان بشيء من التغيير البسيط، إذا كان البحثُ ناتجاً عن سلسلة من النتائج المتعاقبة لنفس فريق البحث.

عند كتابة أسماء المؤلفين تجنَّب الألقاب والكنى، واقتصر على الاسم الأول واسم العائلة، وتأكد من صحة الكتابة، فقد يُكلِّف الخطأ المطبعي في أحرف الأسماء عدم القدرة على الوُصُول للمؤلف بالاسم، أو تبعثر أبحاثه تحت مسميات مختلفة تُقَلِّل من مركزه العالمي.

تحرص بعض المؤسسات الحاضنة للمؤلف أن تُكتبَ بطريقة معينة مما يوحد اسمها في محرك البحث لهذا تأكَّدْ من اسم وعنوان المؤسسة بالشكل الذي ترغب هي فيه، وتذكَّرْ أن العديد من الباحثين قد فَقَدوا اعتراف جامعاتهم بما نشروه؛ لأن هذا البحث أو ذاك لم يظهر في محركات البحث تحت اسم هذه المؤسسة، بل إن ترقياتهم وعلاواتهم رفضتْ، وبالعامية: «بلوا أبحاثهم بدموعهم وشربوها».

يُذكر في هذه الصفحة أيضاً اسم المؤلف الذي خُوِّل من البقية بتمثيل المؤلفين، ومن يُمكن التواصل معه لطلب نسخة من المقال أو الاستفسار، مع ذكر العنوان المفصل له، وكذلك البريد الإلكتروني والهاتف والفاكس. بعض المجلات لا تسمح بذلك، وتشترط قبل النشر توقيع المؤلف على معاهدة نقل الحقوق بالكامل للمجلة.

الاعتراف فضيلة

تَمَّ دعوتي لحضور اجتماعٍ حصري لنخبة أطباء الأنف والأذن والحنجرة على مستوى العالم، فوصلتُ قبل المؤتمر بيومين لأعد العدة، وأتأهب للتقديم، وأظهر في أحلى حلة، فلعل وعسى يكون لي حظ القبول في عضوية هذه المجموعة، والتشرف بتمثيل السعودية كأول عضو في تاريخها، لكن حظي هذه المرة لم يكن استثنائيّاً، ووقف لي بالمرصاد، فلم تصل حقائبي في الشحن في نفس الطائرة، فحمدتُ الله أن لديَّ وقتاً كافياً، لكن لم تصل الحقائب إلا ثالث يوم، فحضرتُ افتتاح المؤتمر ببنطلون جنز وقميص بولو!

عندما قَدْمتُ محاضرتي في اليوم الثاني للمؤتمر كانتْ حقائبي قد وصلتْ، فذكرتُ في الشريحة الثانية لتقديمي المخصصة للاعتراف أنني أصرّح وأعترف بعدم حصولي على أي دعمٍ، كما أحب أن لا أخفي عليكم أن حقائبي قد تأخرتْ، ولهذا ظهرتُ بهندام لا يتوافق مع شرف هذا الجمع. قوبلتُ كلماتي بالتصفيق والضحك، لكن هذا لم يشفعْ لي أن أُقْبَلَ في عضوية هذه المجموعة من أول حضور نزولاً عند بروتوكولات القبول وأُسوةً ببقية الأعضاء.

نعم تشترط المجلات المعتبرة والمؤتمرات الكبيرة الاعتراف بأي علاقة أو دعم، وأن يكون هذا بشكل واضحٍ وجلي، وقبل كل شيء فهي في الشريحة الثانية لأي تقديم في المؤتمر، والصفحة الثانية في مخطوطة البحث المقدمة للمجلة بغرض النشر.

يجب الاعترافُ بكل دعمٍ ماليٍّ أو معنويٍّ أو تسهيلات مِن أي منبع

كان، خاصة من الشركات المصنعة والمسوقة والمروجة، أو أيّاً كان له منفعة مباشرة أو غير مباشرة من هذا البحث، فازدواجُ الولاءات لا يعد استنقاصاً، بل مرغباً فيه إذا كان مِن جهات حكوميةٍ ومؤسسات لا ربحية وجمعيات علمية، ولكن ما يحرص الجميع عليه هو عدم تدليس وخداع المستفيدين، لكونهم مستنفذين أو داعمين ليجنوا ثماراً لا تحق لهم وقتل منافسيهم لا أخلاقيّاً، أو الترويج بسعر أعلى.

كما يجب أن يذكرَ أي نزاع مصالح بين المؤلفين، وكيف تم احتواؤه، مع ما يثبت ذلك مع توقيع جميع المؤلفين عند تسليم المخطوطة للمجلة أول مرة، وعند الاطلاع على مسودة المخطوطة البحثية قبل نشرها، ومن الأكمل توقيع جميع مَن شارك بأي دعم على خطاب مرفق للمجلة يُوضِّح موقفه ورضاه عن نشر البحث من مؤسسات علمية أو شركات تجارية، مع ذكرها أيضاً في صفحة الإشادة.

وكما يقال: حبل الكذب قصير، وإخفاء ازدواجية الولاء ونزاع المصالح كذب بحثي، وهو أيضاً كذب أخلاقي وقانوني يؤدي إلى العديد من المشاكل التي لا تحمد عقباها، ولدى المحررين والمحكمين في المجلة الخبرة الكبيرة في اكتشاف وإثبات ومعاقبة مَن تُسَوِّل له نفسه العبث بمقدرات الفكر البشري؛ لهذا عند الشك في أي شيءٍ لا تتردد في الإفصاح عنه، ووضع الكرة والمضرب بيد المحرر لتتجنب الجلوس على كرسي الاعتراف مدى الدهر ونظرات الازدراء والنقصان في كل مكان.

مـلـخـص الـبـحـث

كنتُ في ريعان شبابي أحرص على صلاة الجمعة في جامع بعيد عن سكن الجامعة؛ لأستمعَ لخطيب يأتيه الناس مِن كل حدب وصوب، فكانتْ خطبة مُفْعَمَةً بالحياة وتعاصر المجتمع، وكان يلخص في الخطبة الثانية ما قال في الخطبة الأولى بكل دقةٍ وشمولية موجزة، وفي إحدى الخطب تكلم عن الشباب، ودورهم في النهوض بالمجتمع، كان الشبابُ متوقداً لكل كلمة تقال عنه، أما كبار السن فقد غالب بعضُهم النعاس، وسُمع الشخير في الصف الأول والأخير، لكن في الخطبة الثانية كانت المفاجأة أنْ أكَّد للسامعين أن الشباب هم مَن في سن الأربعين والخمسين، وليس ما تعارَف عليه الناسُ من العشرين والثلاثين، فاستغرب الجميع إخفاء هذا الفتح المبين!

الملخص هو التوسُّط بين الخوف والرجاء، بين الإفراط والتفريط، بين الحرية المطلقة والوصاية المُكَبّلة، وبهذا تظهر المخطوطة متزنةً ثابتةً رشيقة وجَذَّابة.

الملخص هو الزبدة الصافية للمقال، تُقدَّم في قالب مُعَدٍّ سابقاً، ويكون مُقَـرّاً مِن قبل المجلة، ولكل مجلة قالبها الخاص، إلا أنها تتشابه إلى حد كبير فيما بينها كَمّاً ونوعاً، وتقتصر أغلب المجلات على ٢٥٠ كلمة للملخص لا يوجد بها أي اقتباس ولا التماس، ويمثل الملخص أهم أجزاء المخطوطة لأنه الوحيد الذي يظهر في فهارس محركات البحث ومنه قد يشتري المطلع البحث بأغلى الأثمان أو يستكثر فيه المكان.

ومع أنَّ الملخص يظهر أول المخطوطة البحثية، إلا أنه آخر ما

يكتب، وتتم مراجعته مراراً وتَكْراراً كالتغريدة، فكيف بحروف معدودةٍ أن تلخص مقالاً كاملاً؟!

يضاف إلى صفحة ملخص البحث الكلمات الفاتحة للمقال، ويقصد بها الكلمات التي تسهل البحث عن هذا المقال، ولا يتم حسابها من الكلمات المحدودة للملخص، غير أن بعض المجلات تشترط عدداً مُعَيَّناً من الكلمات الفاتحة.

ويقوم الملخص على خمسة أركان تتشابه إلى حد كبير مع جسم الإنسان، وهي:

المقدمة: كالعقل للجسد بالحكمة والتحكم والتطلع للفكرة، وتنقيتها مما يدور حولها من شبهات.

الطريقة: كالقلب النابض فبه تبدأ الروح وتثبت شرعاً، وأول ما يتطلع إليه المتقصِّي للوجود قبل إثبات الحياة للمخطوطة من عدمه.

النتائج: كالكبد، تُصَفَّى وتُنَقَّى فيه كل ما يدخل إلى البحث.

النقاش: كالجلد، أكبر عضو في جسد البحث، ويغطي كل شيء ويحمي البحث.

الخاتمة: كالعين التي تسحر الجميع، والمطلعة على خفايا الأمور مع صِغَرها.

الـمـقـدِّمـة

عندما تذكر مقدمةً يتبادر إلى الذهنِ مُقدِّمة ابن خلدون، هذه المقدمة التي فاقتْ كتاب (العِبَر) شُهرةً، واعتبرتْ مؤلَّفاً مستقلاً لما تحويه من أبواب وفصول ومجلدات، وتشمل ميادين مختلفة مِن المعرفة؛ ففيها العمران والتاريخ والاقتصاد والسياسة والطب، بل حتى الشريعة لم تَغِبْ عنه.

لا يجب أن يكونَ هذا حال المقدمة في بحثٍ ما، وإلا لن يُقبل نشرُه في أي مجلة، فتحتاج المقدمة أن تكون مشوقةً بلمحة تاريخية سريعة تحوي بعض المسلمات، ومن ثم تُعرض الفكرة وأهداف الدراسة على شكل سؤال شيق ومحير يحتاج التحري والتدقيق، مع وضع فرضية تتنبأ بالنتائج، ويكون الهدف مِن البحث حل هذه الفزورة بشكل أساسي، مع إمكانية التعرف على أهداف ثانوية، ناهيك عن عرْضِ بعض الأبحاث السابقة بكل إيجاز، والتي تؤيد القيام بهذا البحث، كما يجب الإشادة هنا بكون الفكرة جديدة أو السؤال والافتراضية والطريقة مختلفة عما سبق نشره، وكون هذا البحث مثرياً للمعرفة، بكل بساطة هذا البحث ليس: «كلاماً فارغاً، أو مفروغاً منه».

يقول أرسطو: (الجاهل يؤكِّد، والعالم يشكك، والعاقل يَتَرَوَّى)، قد تكون المقدمةُ أصعب شيء في كتابة المقال عند العاقل وأكثرها تروِّياً، فهي تحتاج لحنكةٍ ودرايةٍ، وقد يكون من المفيد جدّاً إعادة كتابتها بعد اكتمال المقال للتأكُّد مِن عدم تجاهل أي شيء ذُكِر فيها، ولم يتم التطرق إليه في هذا البحث.

حاول أن تنقل القارئ من عالم الجوال والإنترنت والكرة إلى عالم آخر، باستدراجه ليعيش جوّاً من العشق بفكرة البحث، ولا يُذم هنا التشويق للفكرة مهما كانتْ غريبة، وتذكَّرْ أن أول المشاعر هي غالباً آخرها.

في هذا الجزء من المقال تظهر عبقريةُ الكاتبِ ولغته وبلاغته وأدبه، حيث ترسم المقدمةُ ملامحَ المؤلف ولمساته الفنية، وقد تتكرَّر هذه السمفونية في مقالاتٍ لاحقةٍ بإيقاعات مختلفة، إلا أنها جميعاً تحمل نفس التوقيع.

يجب ألا تحتويَ المقدِّمةُ على أي نتائج أو جداول أو رسومات ولا أعمال تحت النشر، ولا تصريح بميول المؤلف ولا انتمائه لأي مدرسة أو معتقد، فهو هنا متجرّدٌ مِن كل شيء، وليس أمام ناظره إلا حقيقة مهمة يأمل الوُصُول إليها، دون تحيز ولا تميز، حتى لو خالفت ما يؤمن به ويُمارسه ويدعو له، كما يجب ألا تحمل المقدمةُ أي مفاجآت ولا ترهات، بل حقائق مثبته، ونظريات مؤكدة توقفتْ في مكان ما، ودورُ المؤلفِ هنا هو إكمالُ الطريق لها بنظريةٍ تستحق البحثَ والتأكُّدَ.

عليك في المقدِّمةِ أن تبدأ بأوسع فضاءٍ ممكن، ومن ثم تتدرَّج في الهبوط إلى نقطة البحث، دون أن يشعر القارئ بأي مطباتٍ لغوية أو فكرية؛ لهذا أعِدْ قراءة المقدمة أضعاف ما تعيد مِن قراءةٍ لبقية أجزاء البحث، وتذكَّر أنك محدود في عدد الكلمات كالتغريدة، فلا تُخرج القارئ إلى فضاء المجرات لتصل به إلى إلكترونات الذرة.

غازِلْ في افتتاحية المقال فضولَ القارئ ولو باقتباسٍ محيرٍ، أو فزورة

ولغزٍ استفزازيٍّ، أو قصة تاريخية أو حكمة من أحد المشاهير، اجعلْ هذه المقدمة كالمقبلات التي يسيل لها لُعابُ القارئ، ولا تتردد في عَرْضِها على مَن تُحب من أصدقاء وأقارب لتختبر قدرتك في انتزاع الرغبات وترويض الشهوات، إن كان لك حظٌّ عرض مقالك على أحد الخبراء فلا تطلبْ منه إلا مراجعة المقدمة وتنقيحها وانتقادها فقط.

تأكَّدْ أن جمل المقدمة مترابطةٌ ومتسلسلةٌ في تطويق القارئ وتكبيله بما لا طاقة له بالمقاومة، حتى لو لم يكنْ له في موضوع المقال ناقة ولا جَمَل، وتذكَّرْ جيداً أن القارئ إذا قرأ المقدمة جيداً فسوف يكمل المقالَ، ويشيد به، ويستشهد به إن لم يتعلق بالمؤلف وينجذب إليه، ويصبح من المتابعين له والمترقبين لكل جديد منه، تأكَّدْ من ترتيب المراجع في المقدمة جيداً، فالعود من أول ركزة.

طـريقـة الـتـشـغـيـل

الاجتماعُ السنوي للأكاديمية الأمريكية هو أكبرُ محفلٍ دولي، وفيه حضرتُ دورة جميلة للمؤلفين والمحكمين توضِّح سبب رفض العديد من الأبحاث، وقد حاضر فيها محررون لأكبر المجلات العالمية، كان مؤتمراً رائعاً بكل المقاييس، وفي طريق العودة للوطن الغالي أنهيتُ إجراءات السفر، ودخلتُ قاعة الانتظار، وعندها وصلني بريد إلكتروني من أحد المتدربين، وطلب مني أن أراجعَ بحثه قبل أن يُرسلَه للمجلة، فنظرتُ مباشرة للطريقة نزولاً على نصيحة الخبراء، وإذا بهذا المتدرب يقع ضحيةً لما تعلمتُ، حيث فاقتْ كلماتُ التصحيح التي أرجعتها له كلماتِ البحث بالمراجع، فقد طالبتُه بالتفصيل الممل بالطريقة البحثية مما يجعلني قادراً على القيام بهذا البحث للتحقق مِن النتائج.

الطريقةُ هي نظام التشغيل المعترف والمرخص به لإدارة البحث، ومن هنا يتضح كيف أنَّ لكل بحثٍ برامج مختلفة لتشغيله، مع أفضلية أحدها على الآخر، فنظامُ التشغيل الكبير يكون في غاية التعقيد، ويحتاج فريقاً كبيراً، ويتطلب التدريبَ ومكلفاً وبطيئاً، ولا يخلو من التوقف المربك والمتكرر، بينما البرنامج التشغيلي الصغير قد لا يكون فيه كل هذا التعقيد، إلا أنَّ نتائجه أبسط وأقل بكثير.

عند القيامِ ببحثٍ ما يجب التفكير مليّاً ورويّاً في أفضل وأقصر وآمن وأرخص الطرق المؤدية للهدف المرجو من الدراسة، هذا هو الوقت المناسب للجلوس مع متخصص الإحصاء للتشاور في برنامج تشغيل البحث وقابلية تنفيذه مع تجميع كل المعلومات عن الموضوع؛

لإعطاء صورة جلية لمهندس البناء الذي لا يرغب ولا ترغب أنت أيضاً في تغيير التصاميم لمسكنك ليتوافق مع نظام تشغيل شبكاته المائية والكهربائية؛ لما لهذا من تأخير وكلفة وصعوبة في التنفيذ، بل إن البحث الطبي أهم من المنزل الذي يُقال عنه: (الأول بِعْهُ، والثاني أجره، والثالث أسكنه)، لأن جميع ما سوف تنشر من دراسات ستبقى مسكنك مدى الدهر.

من أبجديات الطريقة أيضاً اختيار العينات كمّاً ونوعاً، والتأكد من تمثيلها للمجتمع، وعدم وجود انحيازٍ لها ولا مربكات لتمثيلها، مع شَرْحٍ لشروط القبول لها، أو تنحيتها من العينة وسُبُل مُطابقتها لعينة المشاهدة، بالإضافة إلى تجميع النتائج ومنهج تحليلها، وسبب اختيار هذا المنهج عن غيره، وهنا ينصح التواصُل مع خبير الإحصاء لمراجعة كل هذا، فأهلُ مكة أدرى بشعابها.

يجب أن تكونَ الطريقةُ كاملةً شاملةً لكي يتمكن أيُّ إنسانٍ مِن إعادة التجربة، والحصول على نفس النتائج؛ لهذا تكون فقرة الطريقة مِن أطول ما في المقال؛ حيث إنَّها المكان الوحيد في مخطوطة البحث الذي يرحب فيه بالإسهاب الطويل، وشرح أدق التفاصيل، فلا تستغرب أن يَذكرَ أحدُهم اسم ومواصفات البرنامج وجهاز الحاسوب الذي استخدمه في تحليل النتائج وسنة الصنع، ومكان التجميع، بل وحتى الكهرباء الموصلة له أكانت ١١٠ أو ٢٢٠.

تصميم البحث

قدَّم أحدُ الزملاء بحثاً جميلاً في مؤتمر عالمي، وكنتُ معجباً بالفكرة البحثية وأطروحته في الفرضية، والتساؤل عنها بحكمةٍ ورَوِيَّةٍ مع عُذوبةِ منطقه ونُطقِه، ومن ثم اطِّلاع الحضور عن توقفه المُشَرِّف عن إكمال البحث لعدم تقبل مجموعة الدراسة للتدخل الذي اقترحه لحل الأحجية البحثية، وعدم تحرُّجه من عرض النتائج التي حصل عليها، ورفعه بالتوصيات لمن أراد تحوير الطريقة في المستقبل، لم تكن رحابةُ صدره للأسئلة الثقيلة والجارحة، ناهيك عن رباطة جأشِه في قاعة كبيرةٍ مزدحمة بالحضور أقل سموّاً ورفعة له، غير أن القشَّة التي قصمتْ ظهر البعير كانتْ عند سؤال أحدهم: لماذا لم تستخدم الدراسة الاستطلاعية Pilot Study قبل أن تُغامِرَ بهذا البحث؟

فردَّ: لم أفكر بهذه الطريقة!

هنالك أنواعٌ كثيرة للبحث العلمي متشعِّبة ومتفرعة، لا يتَّسِع الزمانُ ولا المكانُ ولا الإنسانُ مؤلف هذا التبيان أن يشرحها؛ وكما قال لسانُ الدين الخطيب:

فإنْ عجزتَ فعن عذرٍ وثقتَ به
مَنْ رام عدَّ الحصى والقطر لم يُطِقِ

وإن وفيتَ ببعض القصد ريتما
يكفي مِن العقدِ ما قد حَفَّ بالعنقِ

دَعُوني أكتفي بما يلي من أنواعٍ والتي تشبه إلى حدٍّ كبير مناهج تدريس الطب:

أ) الأبحاث النقية: ويقصد بها البحثُ لمجرد المعرفة في أمور موجودةٍ، ولا تشكل مُعضِلَةً، كدراسة التطوُّر عند الجنين، والسلوك البشري، والتطوُّر الفكري، والتشريح، ووظائف الأعضاء.

ب) الأبحاث الحيوية BioMedica : أو ما قبل الطبية، وهي الأبحاث الأساسيةُ، وتُجْرَى هذه الدراساتُ في المعامل، وعلى الحيوانات؛ لاكتشاف الأدوية والأمراض والتفاعلات الكيميائية الحيوية في الجسم الحي.

جـ) الأبحاث الطبية: والتي تدرس الحلول لمشاكلَ سريريةٍ تطبيقية على البشر، يقوم بها أطباء مرخَّصٌ لهم بإجرائها في المستشفيات والمجتمعات على متطوعين، وحيث إنَّ هذه هي محور الحديث فلها نصيبٌ أوفر من الشرح.

تنقسم الأبحاث الطبية قسمين رئيسيين هما:

١. دراسة المراقبة Observational، وتنقسم إلى:

- دراسة وصفية.
  - تقرير الحالة.
  - دراسة مقطعية.
  - دراسة سلسلة الحالات.
- دراسة تحليلية: قد تكون استباقية Prospective أو استعادية Retrospective.
  - الحالات والشواهد.
  - دراسة الأتراب Cohort.

٢. الدراسة التجريبية Experimental: قد تكون استباقية Prospective، أو استعادية Retrospective، وتنقسم إلى:

- دراسة غير مضبوطة.
- دراسة مضبوطة: بمجموعة شاهدة Control.
  - دراسة عشوائية Randomized.
  - دراسة غير عشوائية.

هذه الطُّرُق تُستخدم في تخريج كل صحيحٍ وأصح الصحيح، وترتب الأبحاث بدرجات متفاوتةٍ، ومن ثم هذه الدرجات يتم الرجوع إليها لكي يتواصل الجميعُ بلغة واحدة متعارَف عليها، فمثلاً البحث القائم على دراسة مستقبلية بمجموعةٍ شاهدة تَفُوق بمراحلَ الدراسة المقطعية التي لا تكاد تُمَيِّز بين الفاعل والمفعول به.

يُقال: كل الطرُق تؤدِّي إلى روما، وهذا صحيحٌ إذا كان الهدفُ معلوماً، لكن أغلب الأبحاث تبدأ من المعلوم لتكتشفَ المجهول، لهذا يحتاج الباحثُ إلى مرشدٍ خبير بالإحصاء، فأهلُ مكة أدرى بشعابِها، وأنا لا أذكُر يوماً خرجتُ فيه مِن مكة دون أن أضيعَ ساعة بأقل تقدير.

وقت مستقطع هنا:

لكلِّ فكرة عددٌ لا ينتهي مِن الفرضيات يمكن التحقق منها بأضعافٍ مُضاعفة من التساؤلات، إجاباتُها الصحيحة تتحقق بطُرُقٍ مختلفة.

الـنـتـيـجـة

كنتُ مِن المشجعين الكبار في ريعان شبابي لنادي النصر، وقد وصل هذا الفريق للنهائيّ وأمام ألد المنافسين؛ نعم نادي الهلال، ولم يخلدْ في ذهني غير التتويج لفريقي في هذه الليلة؛ لما حقَّقَهُ مِن إبداعٍ في المباريات السابقة، إلا أن ارتفاع درجة حرارتي والنفضة التي كنتُ مصاباً بها أجبرتْني على الالتحاف بالبطانيات، وفي كلِّ مرة أُخرج منها رأسي أتلمَّس هدفاً مِن فريقي أمام الصياح الكبير لمن حولي، أجد أن هدفاً قد سُجِّل في فريقي، واكتفى الفريق المنافس بأربعة أهداف نظيفةٍ، وكان مِن رحمة الله بي أنني كنتُ مريضاً، وتغَيَّبْتُ عن الدراسة، وإلا كنتُ أضحوكةَ الفصل في اليوم التالي.

النتيجة تُكْتَب في النهاية بعد اكتمال جميع أشواط البحث، وتوضح النهاية الفوز أو الهزيمة ظاهرة جليَّة، وتكون مسجَّلة بالتاريخ، كما يظهر فيها تسلسُلُ تسجيل الأهداف البحثية، متجرِّدة من إضافةٍ لأهداف متسللة وفرصٍ لم تتحققْ، وهجمات لم تسجلْ، وشباك لم تهزَّ، ويمكن أن يذكرَ في النتيجة تفصيل كل هدف كيف تحقَّق ومتى ومَن سدَّده.

تصفيةُ النتائج في كتابة المخطوطة هو كبِدُ الجسد، فما كلُّ ما يُعلم يُقال، ولا كل ما يُقال يُكتب، وفي المقابل إخفاء النتائج المهمة لأي غرض هو مرضٌ يصيب بعض المتمرِّسين، إما لإثبات رأيه، وإما لتحقيق أهداف متسللةٍ لم يصرحْ بها، وهذا شركٌ مخرج مِن ملة البحث الصادقة!

إن أحببتَ أن تعلمَ هل هذا الإخفاء صحيحٌ أو قبيحٌ، طَبِّقْ عليه قاعدة الإثم: (ما حاك في نفسك وخشيتَ أن يَطِّلَعَ عليه الناس)، فإذا راودك الشكُّ في الإفصاح، وخشيتَ أن يُكتشفَ إخفاؤك لهذه الحقائق، فإن النتيجة واضحة، فهذا أقرب للغِشِّ والتدليس، ومِن الأحوط أن تذكرَ هذه النتيجة في المخطوطة.

مِن المحرمات في كتابة البحث: الجمعُ بين الأختين، فلا يسمح بأن يكونَ النص توءماً للجداول في توضيح النتيجة، بل الاكتفاء بأحدهما، كما يحرم أن يُقحمَ في النتيجة أي فكرةٍ أو طريقة أو تفسير أو اقتباس أو استشهاد، وتَذَكَّرْ دائماً أن النتيجة هي مُنتج خامٌ يوضَع في صورته الحقيقية المستخرجة، مع ما ينتج عنه من تحليلٍ وتصفيةٍ مُتفقٍ عليها مسبقاً، وليس في هذا المقام يتم النِّقاش أو الاستنقاص، ولا التبرير ولا التسعير، فلكل مقامٍ مقالٌ. كذلك لا تُذْكَر الصِّعابُ ولا التكاليفُ في الحصول على النتيجة، ولا التأكيد ولا التشكيك في الطريقة المتبعة.

ولا يستخدم هنا إلا وحدات القياس الدولية؛ فالمتر للأطوال، وسلسيوس للحرارة، ونحو هذا إذا لم تشترط المجلة وحدات خاصة للمخطوطات المنشورة فيها. وتجنَّب الاختصارات إذا لم تَقُمْ بتعريفها مسبقاً، ولا تفترضْ أن جميع القراء على إلمامٍ بما تستخدم من رموز، ولا تميز النتائج عن بعضها بعضاً بلونٍ أو خط أو تنسيق مختلفٍ، حتى لو كانت خارج المجال الطبيعيّ.

الجداولُ والصوَرُ والرسومات جزءٌ لا يتجزأ من النتيجة، إلا أنها توضَعُ بشكل فرديّ ومنفردٍ في آخر المخطوطة. تأكَّدْ مِن ذكر هذه الجداول والصور والرسومات في نَصِّ النتائج، وتأكَّدْ من تسلسها وترتيبها في النص.

الـنّــقــاش

فاز الدكتور أحمد زويل بجائزة نوبل، وفسَّر سبب اختفاء العرب والمسلمين عن منصات التتويج ما توارثوه من أقفال، ففي قصةٍ جميلةٍ ذكر فيها أنه كان في مصر الحبيبة في ريعان شبابه عاكفاً في المختبر، وإذا به يجد الأقفال في كل مكان، فلما سأل عنها وجَد أن كلَّ الباحثين لديهم خزانات مُوصدة، بها كلُّ ما يصل إلى المختبر مِن عيناتٍ، فلمَّا ذهب إلى أمريكا لإكمال دراسته، وجَد المختبرات مُشرَعةَ الأبواب، فجمع العديدَ مِن المدَّخرات، وأوصد عليها بابَ خزانته بقفل كبيرٍ، لكن عندما قدَّم أطروحته البحثية استغرب التفاف الناسِ مِن حوله، هذا يُشيد بالفكرة، وهذا يُقَدِّم له مشورة، وذاك يوصِّل إليه مقالاً ويكبر فيه ما قد قال، لقد أصبح ثريّاً عندما فتَح قلبه وعقله لمن حوله، عندها رجع إلى مختبرِه، وفكَّ القفلَ الذي وَضَعَهُ على الخزانة بعد أن فك القفل في عقله الذي توارثه دون تفكير.

النقاشُ هو البحثُ عن المفتاح الضائعِ، فإن وجده المؤلفُ فبها ونِعْمَتْ، وإن وجده مَن سبقه بالنشر شكَره وأثنى عليه. النقاشُ يجب أن يكونَ برأي القارئ وليس الكاتب، وذلك بإظهار كل ما توصل إليه الباحثُ مِن حقائقَ في نتائجه، والاستيعاب لجميع من سبقه، وتثمين رأيهم، مع انتقادٍ بنَّاءٍ لكل حقيقة بِذِكْر محاسنها وحسناتها أولاً، ومن ثم التماس العذر لما يستنقصها عن غيرِها.

تجنبْ تفسِّرَ الماء بعد الجهد بالماء، أو أن تُكررَ العبارات شحذاً للعبرات، للنِّقاشِ طقوسٌ تستوجب الطهارة من شوائب النفس وتطلُّعات

الهوى، وتذكر أن الشرعَ والعرف البحثي لن يرضى بغير التجرُّد من كل شيء، لكي تكون الحقيقةُ جَلِيَّةً للجميع يؤمنون بها دون تردُّد.

في النِّقاشِ يعرج المؤلفُ على المقدمة بشيءٍ مِن الإيجاز، ويحبك القصة كاملة بالاستشهاد بمن سبَق، ويجب أن يذكرَ المؤلفُ كل تقصير أو تحديد أو تقييد لهذه الدراسة التي مِن الممكن أن تكونَ أفضل لو توفرتْ وتسهلتْ لها سُبُلٌ أخرى ومدى تأثير هذا القيد على نظام التشغيل في هذا البحث، كما يجب أن يتجنبَ المؤلفُ الالتماسَ بين أقطاب التيارات في مخطوطته، فقد يحرق كل ما زرَع، ويكتفي بإظهار كل وجهة نظر بما تحب أن تتزينَ به.

جميل أن يضعَ المؤلفُ الكحل في عين البحث، فتكون كما قال الشاعر:

... العيون التي في طرْفِها حوَر
يقتلْنَنا ثم لا يُحيين قتلانَا

يصرعْنَ ذا اللُّبِّ حتى لا حراكَ له
وهنَّ أضعفُ خَلْقِ الله إنسانَا

بتشويق الحقيقة لمن بعده ووضع العدسات المجمَلة على هذه العين وبالنظارات المكبرة يُقَدّم النُّصح لمن يأتي بعده، مع كشْفِ الأفكار والصعوبات، وإرشادهم لأقصر الطرق وأفضلها، بدون أن يعمي صدقته بالمنِّ والأذى، ويعيد ويزيد أنه صاحب هذه الفكرة، ومن يأتي بعده سيكون مديناً له مدى الدهر.

الـخـاتـمـة

أحببتُ أن أختتمَ حياة تأليف الكتُب بموضوعٍ أحببتُه، وهو خبرتي المتواضِعة في الحياة الطبية بنجاحاتها وفشلها، بتحدّياتها وكراماتها، بيُسرها وعُسرها، وأسميتُ هذا الكتاب بما كنتُ مخططاً له: «خاتمة ابن حجر»، ولسوء الحظِّ راجعه خبيرٌ لغوي أفرطتُ الثقة فيه، فلما خرَج الكتابُ لم يسلمْ مِن الانتقاد البنَّاء بقدر ما أكرم بالثناء العطر، لكني لم أكنْ سعيداً بهذه النهاية!

قمتُ بمراجعة الكتاب للطبعة الثانية، كما تَشَجَّعْتُ في مواصَلة التأليف للكُتُب لما وجدتُ مِن متعةٍ وإشادةٍ مِن القراء، فكفَّرْتُ عن اليمين، وأقحمتُ نفسي في تأليف كُتُب لا أتوقع أنني أهلٌ لها؛ لعلي أنسى تلك الخاتمة، وربما يكون لها مشاربُ عند البعض، فلولا تنوُّعُ الأذواقِ لبارت السِّلَع في الأسواق، لكن مع كل انشغالي إلَّا أنني بين الفينة والأخرى ارجعْ لهذه الخاتمة أضيف وأصحِّح وأنقِّح.

لن يتأسَّفَ ولن يتحسَّرَ الكاتبُ على شيءٍ في بحثه أكثر وأكبر من كتابة الخاتمة، كما كانتْ كلمة "حتى" على قِصَرِها وبساطتها أكثر تعقيداً ورعباً وخانقة لعبرة، ولمن؟ لأكبر عالم للغة العربية، نعم لسيبويه، فقد حيَّرَتْهُ وأقَضَّتْ مضجعه، وفيها قال: (أموت، وفي نفسي شيءٌ مِن حتى)، نعم سيموت كلُّ مؤلفٍ صادق ومؤمن ومخلص في بحثه، وفي نفسه شيءٌ مِن الخاتمة!

يسأل الجميعُ اللهَ حسن الخاتمة؛ فهي ما يَتَطَلَّع إليه الجميعُ، فإن كانتْ خيراً فقد سعد، وإن كانتْ شرّاً فقد تعس، ويسأل مؤلفُ الأبحاث الله دائماً حسن الخاتمة في كلِّ ما خطت يداه؛ ليكون عملاً صالحاً وخالصاً لله،

كما يدعو بالثبات فيما يعقبه مِن سؤال لمنكر ونكير يُحكمون البحث.

زبدة الزبدة بتغريدة قد تصبح مثلاً أو حكمة أو نظرية يُستشهد بها، قد ينسى الجميعُ الفكرةَ والأحجية وفصول المغامَرة في الطريقة، لكن لا ينسون ما خَتَمْتَ به بحثك؛ فالعِبْرةُ بالخواتيم!

هنا تظهر حنكةُ الكاتبِ في صياغة خاتمة رشيدة تدلُّ على تبحُّر الكاتب في هذا الموضوع، الذي يجب ألا يكونَ أحد عند صياغته أفضل منه لما بحث وقرأ، واختبر وحَلَّل، وقارن بين الحقائق ورجح أو ابتكر أَصَحَّ الصحيح لها.

لا تقول: "في الختام" وأنت تحت عنوان الخاتمة، ولا تحمل الخاتمة ما لا تحتمل مِن كلمات كثيرةٍ وكبيرةٍ لا تتماشى مع حقيقة البحث، وما توصلت إليه دون الاستشهاد بالغير، فخيرُ الكلام ما قلَّ ودلَّ، وفي المقابل لا تبخلْ على القارئ بأهم الإنجازات التي توصَّل إليها البحثُ، ومواطن القوة في الطريقة مع تثمين للفكرة وأصالتها.

تجنَّب الاعتذارَ بالتقصير والانشغال عن البحث أو الانكسار على الأخطاء غير المقصودة، فكلُّ هذا غيرُ لائق بالمقالات العلمية، كما يجب أن يتجنَّبَ المؤلفُ رفع اللَّومِ أو إلصاق التهَم به تواضُعاً وبغيره تهكماً، ولا تبجيل الأشخاص والإشادة بهم في هذا المكان، ولا الدعاء لهم.

صحيح أن الخاتمة هي النصرُ بتحقيق الهدف، لكن النصر ليس النهاية، ولا بداية النهاية، ولكنه نهاية البداية كما يقول تشرشل!

نعم سيبدأ مشوارٌ طويلٌ في نشر هذا المقال، ومشوارٌ أطولُ في إشهارِه والذَّوْدِ عنه يتطلَّبُ أن تكون خاتمته متفهمة لما قد يؤول إليه.

الامـتـنـان أمـانٌ

كنت أتابِع إحدى المجلات الطبية منذ نعومة أظفاري، والتي تنشر الأبحاثَ في جميع تخصصات الطب، بل وحتى التمريض، والصيدلة، والأسنان، ولكن الأغرب مِن هذا أنَّ العديد مِن المقالات تضع محررَ المجلة من ضمن المؤلفين، إن لم يكنْ أولهم، ومن ثم تطورتْ هذه المجلة وأصبحتْ أكثر مصداقيةً بإزالة اسم المحرر مِن قائمة المؤلفين، والاكتفاء بالإشادة به في فقرة الامتنان Acknowledgement.

تُعَدُّ فقرةُ الامتنان مِن لَمَسات الباحثِ المتمَرِّس، وينساها الباحثُ المستجدُّ واللاهث خلْفَ النشر بأي صورة، صحيحٌ أنها ليستْ إلزاميةً في المجلات، لكنها دليلٌ واضح على أن الباحث مُلِمٌّ بصعوبة الانفراد بهذا العمل الذي يستحق البحثَ والنشرَ، كما أنه دليلٌ على أنَّ البحثَ ذو أهمية، وقد شارك فيه العديدُ من الأشخاص بل حتى المؤسسات؛ إيماناً منهم بهذه الأهمية، وتصديقاً منهم بجدارة الباحث على القيام به وتحمُّل تبعاته.

قد لا يخلو مركزٌ ولا معهدٌ ولا جامعة مِن شكاوى بين الباحثين وفريق البحث لديهم، أو الباحثين أنفسهم في أحقيَّة التأليف، بل إن المجلات قد تقوم بسَحْبِ المقال بعد نشرِه وتغيير المؤلفين أو ترتيبهم، أو حتى وضع بعض المؤلفين في القوائم السوداء، كما أن المجالس العلميةَ والمراكز البحثية بل حتى الأقسام الأكاديمية قد تقوم بتعزيز بعض أعضاء هيئة التدريس لحل المشاكل الناتجة عن الأبحاث، وفي عدم إعطاء كل ذي حق حقه، والأغربُ مِن هذا أنَّ مِن الشكاوى ما يكون

بعكس ذلك؛ حيث يُذكر أحدُهم كمؤلفٍ أو حتى يشكر دون موافقته، ويُعَدُّ ذلك تعدِّياً على سُمعته والمتاجرة بها دون عِلْمه!

هنالك نقطةٌ جوهريةٌ يغفلها البعض، ألا وهي: الاعترافُ والتثمين والشكر والامتنان لكلِّ مَن أسهَمَ وشارَك في البحث، ولا تنطبق عليه الشروط الكاملة للمؤلف، وهنا بالإمكان الإشادة بالمسؤولين والإداريين، ومجمِّعي النتائج والمحللين والإحصائيين والمدققين اللغويين والسكرتارية، كما يجب إخبارهم بهذه الإشادة في المقال، والتأكُّد مِن عدم اكتمال حقِّهم في التأليف، ورضاهم بالشكر بخطاباتٍ منهم تحمي المؤلفين مستقبلاً مِن أي دعاوى، كما يجب ذِكْر الإسهامات التي قدَّموها، وعدم الاكتفاء بالشكر والتقدير.

قد يَستهين البعضُ بأخْذِ الموافَقة الخَطيَّة للأشخاص أو المؤسسات عند ذِكْرِهم في فقرة الامتنان، ولكن هذا الأمرُ البسيط يُعَدُّ توثيقاً وحمايةً للمؤلِّف في المستقبل، فهو حجةٌ ضد أي دعوى بأهلية الشخص أن يكونَ من المؤلفين، كما أنه براءةٌ مِن أي تشكيك للمؤسسة بأحقيتها في امتلاك الفكرة، أو أنه كشف لأسرارها.

كما يجب أن يذكر هنا كل مَن دَعَّم المشروع البحثي بالمال أو الوقت أو الجهد، ومن ذلك المؤسسات التعليمية والكراسي البحثية، والأوقاف والمعاهد والشركات والمصانع، وعدم إخفاء أي دعمٍ مع أخْذِ الموافَقة الخَطِّيَّة منهم بذلك.

المراجع والمواجع

أنهيتُ تسليمَ بحثٍ لإحدى المجلات، وبعد (اللَّتِّ والعَجْن) مع المحررِ والمحكمين اعتذرت المجلةُ عن قبول البحث، ومن أهم ما تم التعليق عليه هو الخلط في المراجع، فقد أصابوني في مقتلٍ، ومِن ثم بقي هذا البحثُ في قائمة التأجيل حبيس الجدران أسوةً بالعديد من الأبحاث المهلِكة جسديّاً وفكريّاً بسبب كتابة المراجع فيها، مع أن البعض تَمَّ إخراجها من القائمة لصعوبة تخريج ما فيها مِن اقتباس أو استشهاد، وعندما سألني أحدُ المشاركين عن المستجدَّات، قلت له: لقد تعبتُ أيما تعب مِن هذا البحث، وكلي أمل أن يقومَ أحد بحلِّ معضلة المراجع، ويكون هو المؤلف الأول بدلاً مني، فكلي يقين أن هذا أصعب وأعقد ما في البحث، إلا أن هذا الصديق المخلِص لم يشأْ أن ينتهزَ هذه الفرصة ليكونَ المؤلف الأول، بل أرشدني ودَرَّبني على برنامج يقوم بهذا بكل دقةٍ وفي ثوانٍ معدودة، وقد كان في ذلك الوقت الإصدار الحادي عشر للبرنامج، بعدها قمتُ بإنهاء العديد من أبحاثي وأبحاث زملائي ونشرها؛ مما سبَّبَ طفرة بحثيةً في محركات البحث تحمل اسمي: «صيغة مبالغة».

كانتْ كتابة المراجع بالطريقة المعتَمَدة مِن المجلة في كفةٍ ترجح على الكفة الأخرى التي تحمل كلَّ متاعب البحث من أوله لآخره، وكانتْ هذه الفترة تحمل الأسى والحزن على ضياع وقت ثمين في كتابة المراجع والتأكد مِن أنها مطابقة للمجلة، ولم يصحبها أي خطأ في الكتابة أو الترتيب، بل كانت الطامَّةُ الكبرى عندما ترفض المجلة المقال ويتم إرساله لمجلة أخرى تتبع طريقة مختلفة في كتابة المراجع!

في تلك الأيام العصيبة كان المؤلفُ يحفظ عشرات النسخ مِن مقالة تحوي بعضها المراجع كاملة ليتمكن مِن الرجوع إليها عند الحاجة.

عند رجوعي للوطن أخبرتُ بعض الزملاء عن رغبتي بإقامة دورة تدريبية لهذه البرامج، فكانت الطامَّةُ الكبرى عندما أخبرني أحدُهم بمعرفته بها منذ إصداره الثالث، ولكنه لم يرغب بالتحدث عنها لَمَّا وجد البعض متكتِّماً بما لديه من علمٍ، فلم يرغبْ أن يكون خيراً منهم.

أقمتُ هذه الدورةَ وقلتُ في المقدمة: إن رسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم قال: ((لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه)) ، بينما يوسوس الشيطان الرجيم: (لا يحب المرء أن يكونَ أحد خير منه إلا ابنه).

الآن أصبح في الإمكان كتابة المراجع باستخدام البرامج الحاسوبية، ومن أشهرها EndNote وReference Manager، وتمتلك هذه البرامجُ مخزوناً كبيراً لطرُق تنسيق المراجع للكثير من المجلات، كما يمكن إضافة الكتب والمؤتمرات والنشرات لهذا البرنامج؛ لتتمكنَ مِن تحويلها إلى مراجعَ في المخطوطة بصيغة المجلة، بل قامت المؤسساتُ التعليميةُ بتوفير أحد هذه البرامج بالمجان لطلبتها والعاملين فيها، موقنةً بأهميته والتي لا يمكن العمل إلا به، نعم في غمضة عينٍ أصبح بمقدور المؤلف تغيير كل المراجع وبدقة متناهية تحفظ الجهد والمال، بل أصبح إعادة ترتيب الجمل متعة المتَع بعد أن كان قطعةً مِن العذاب والتي يخاف مِن تبعاتها وتداخل مراجعها أدهى الدُّهاة، بل إن الرفضَ مِن المجلات لم يَعُدْ نهاية المطاف، فبضغطة زر يتم تحويل كل المراجع لتتوافَق مع المجلة الجديدة.

الجميلُ في هذه البرامج أنها تحفظ المراجعَ في حاسوبك الشخصي في ملفات مستقلةٍ، ولكل بحثٍ تجمع لك المراجع التي ترغب فيها، وتمكنك من قراءتها بدون الاتصال بالشبكة العنكبوتية، بل وتوصل لك الملف الكامل إذا كان متوفر في حاسوبك الشخصي، والجميلُ كذلك أن باستطاعتك تبادُل هذه الملفات مع مَن تُحب عبر بريدك الإلكتروني، وهناك ميزاتٌ كثيرة لا يتسع الوقتُ لها يمكن الاطلاعُ عليها بكل سهولةٍ عبر مشاهدة العديد من الأفلام في اليوتيوب.

نصيحتي لكلِّ باحث أن يقوم بكتابة المراجع بيده أولاً من باب المغامَرة لا المخاطَرة، ومقارنة ما قام به بنتيجة البرنامج الحاسوبي، ويتخيل معي كَمْ كانتْ كتابةُ الأبحاث عملاً شاقّاً ومحبطاً ومحزناً، ويحمد الله على نعمة لا تُقَدَّر بثمنٍ.

الـجـداول والأشـكـال

كان هنالك يومٌ مجدول للقاء الأبحاث يُعقد أسبوعيّاً ولمدة أربع ساعات مع فريقٍ من الطلبة الذين آثروا البقاء في قيظ الرياض وغباره في الصيف، لكي يقوموا بأبحاثٍ في مجال تخصُّصهم، وكانت أياماً جميلةً يتبادل فيها الجميعُ الأفكار، ويساعد بعضهم بعضاً، وفي أحد الاجتماعات المتقدمة قام أحد الطلبة بتقديم نتائجه الشيقة في جداولَ جميلةٍ، لاقت استحسان الجميع؛ لصفائها وعذوبتها وتفصيلها للنتائج، ولكن عندما قدم المخطوطة البحثية كانت النتائج في جداولَ فقط، فلم يَسْلَمْ من التعليق البَنَّاء إلَّا أنه ردَّ بشيء من العتب قائلاً: هذا ما قابَلْتُموه سابقاً بالأفراح، فكيف به يُقابَل الآن بالأتراح؟!

الجداولُ في المخطوطة أنهار عذبةٌ من النتائج، تسقي البحث ذاتيّاً وبأقل التكاليف، بل وتُجمل الحديقة بجريانها، ومن الغباء طمسُ الأرض كلها بالماء، أو تصريف المياه لترجعَ لهذا الجدول الجاري مرة أخرى، حاملةً السماد والبذور بدلاً من الاكتفاء بما يروي الحديقة؛ لهذا لا تغرق المخطوطة بالجداول والصور والأشكال مهما كانتْ جميلةً في نظرك، ولا ترجع ثروات النص كلها للجدول.

ضَعْ كل جدولٍ في صفحة واحدة مستقلة، ولا تخلط الجداول ببعضها بعضاً، وتأكَّدْ من أنها تُظهر المعلومات بشكل بسيط ومختصر أكثر مِن النص ولا تحتاج تفسيراً، استخدم القياسات الإحصائية الدقيقة في هذه الجداول وتفرعاتها، وراجعها مِراراً وتكراراً، وتأكَّدْ منها لتبدوَ سلسةً متناسقةً، وبهيةً تجمل حديقة بحثك، تجنَّب الجداول الكبيرة، وقَسِّمْها

إلى عدة جداول، وكذلك تجنَّب الجداول الصغيرة جدّاً.

تأكَّدْ من أن الصور – خاصة الرقمية منها – ذات وضوحٍ وجودة عالية، لا تظهر أي معالم يمكن أن تُعَرِف أو تُشهر بالمريض إلا بموافقته الخطية، اذكرْ معامل التكبير للصور المجهرية أو صورة مسطرة مع ما تحب إظهاره لتكونَ القياسات واضحة، أما الرسوماتُ فلا تبخلْ على القارئ بالاستعانة بمحترفي رسم متمرِّسين على هذا العمل الدقيق، ويمكن الوُصُول إليهم عبر المواقع في الشبكة العنكبوتية لكنهم يتقاضون مبالغَ كبيرة جدّاً، فلو كنتَ مبدعاً في الرسم لما دخلتُ الطب!

الحاشية يجب أن تكتبَ لكلِّ مرفق مع تسمية ثابتة، وترقيم عربيٍّ لهذه المرفقات، وبما يتماشَى مع النص المكتوب، كما يجب ألا تغطسَ الحاشية في الجدول والصور، بل تكون منفصلة تحتها، وفي نفس الصفحة، وتأكَّدْ أن أرقام الجداول مختلفة عن أرقام الأشكال.

جرت العادةُ أن يكونَ نوع خط الحاشية هو نفسه خط النص، إلا أنه يصغره حجماً، فلا تُجهد القارئ في الصور وكأنها أحجية المتاهة، بل يجب أن توضعَ الرموز وتُوضَّح بشكل جليٍّ يراعي المتفق عليه من رموز، كما أن ترتيبها يجب أن يكون على هذا النحو:

*، † ، ‡ ، § ، || ، ¶ ، ** ، †† ، ‡‡

المجلة والمذلة

أرسلتُ أحدَ الأبحاث لمجلة سعوديةٍ، وبعد انتظار طويلٍ غير مبررٍ، ومراسلة المحرر عدة مرات، جاء الردُّ بالرفض، وبعذرٍ أغلظ من ذنب، وهو صعوبة قَبول العديد من الأبحاث في هذه المجلة؛ لما يصل إليها مِن أعداد كبيرة!

طلبتُ من الله الخيرة، ومِن ثم أرسلتُها لمجلة عالميةٍ، وما لبث أنْ جاءني القبولُ بسرعةٍ على طبق مِن ذهب وبدون أي تعديل يُذْكَر مِن قِبَل المحكمين؛ فحمدتُ الله وشكرْتُه على هذه النهاية السعيدة، وتردَّدتُ مراراً وتكراراً في مراسلة المجلة المحلية لكي لا أفاقم عليهم كثرة الأبحاث.

المحكُّ الرئيسي لنجاح البحث هو النشر؛ "إذا لم تنشرْه فلِمَ تَفْعَلْهُ؟"، ولكن العديد مِن الأطباء لا يرضى أن يكون تحت حكم رئيس تحرير أو محكمين، وينظر إلى هذا النظام وكأنه إذلالٌ لا يقبل الخنوع، لكن كما يقال: واثق الخطوة يمشي ملكاً، وليس في رد رئيس التحرير بالاعتذار استنقاصٌ للباحث، فمنهم مَن بحقٍّ لا يتسع وقته أو تخصصه بالحكم الجيد على البحث، أو أن البحث خارج مجال المجلة، أو أن المجلة تسعى لتغطية كل التخصُّصات، فتعطى الأولوية لبعض التخصصات الدقيقة على البعض الآخر، بل منها مَن لا يقبل بعض أنواع الأبحاث مثل حالة نادرة أو مراجعة لموضوع وهي خارج سيطرة المحرر الذي

يتبع مشورة مجلس إدارة المجلة وسياساتهم المتفق عليها.

صارَحني أحدُ الزملاء عن رفضِه لبحثٍ في مجلة بسبب عدم اكتراث المؤلف بما صدر منه كمحكم، إلَّا أن هذا البحث نُشِر، ومن ثم اكتشف أنه لأحد أصدقائه المقربين، فحمد الله أنه لم يكن يعلَم به، نعم المؤلف مجهول الهُوية والعنوان، وكذلك المحكمون؛ لهذا يجب الترفع عن شخصنة التقييم ورمي التهم جزافاً والرقي بهذه التشريعات عن الملاسَنات والتحديات والانتقامات، والتطلع إليها كأحد الأفكار البنَّاءة في صقل البحث؛ ليظهرَ بعد النشر في أبهى حُلة، كما يجب الإيمانُ والتصديق بلا أدنى شك أن الخيرة فيما يختاره الله.

لقد فَطِنَ بعضُ المؤلفين الموهوبين لحقيقة التحكيم، فبادروا بإرسال مقالاتهم البحثية لأرقى المجلات، لكي يحصلوا على نصائحَ ثمينةٍ وبالمجان مِن رؤساء المجلات، أو من المحكمين فيها، وهنالك العديد من المواقع التي تقدِّم الإرشاد للمؤلف بالمجلات التي تتطلع لبحثه مع ترتيبها حسب سهولتها وقوتها، كما تقوم بعضُ مواقع التصحيح اللغوي بتجهيز المقال ليوافقَ شروط وتطلعات المجلة التي يرغب بها المؤلفُ.

نظرةُ المجلة ليست قاصرةً، وسياساتُها ليستْ دساتير محكمةً؛ لهذا لا تتعلق بأستار مجلة واحدةٍ، ولا تقاطع مجلة بعينها، فكلما تنوعتْ أسواق منتجاتك البحثية اشتهرتَ وزادتْ أرباحُك، وقلَّت الانتقادات والتُّرَّهات حول أفكارِك.

ما يدور في أَرْوِقَة وغرف المجلة لا يُعْرَض على الهواء مباشرة، في

هذه الكواليس العديد من المفاجآت التي لا يمكن التنبُّؤ بها، ولا تظهر للجمهور، ويفطن إليها البعضُ في مراحلَ متقدمةٍ في حياته إذا حالفه الحظ، واطلع عن قُربٍ لما يدور في هذا المطبخ الذي يطمح الجميع أن تتكشفَ أسراره، فهو بلا شك أكثر تشويقاً مِمَّا يُعرض، وكلي أمل أن يُكتب لي الاطلاع على مجريات رَفْض بعض أبحاثي لإشباع فُضولي، ولأزداد إيماناً أن لو اطلعتُ على الغيب لاخترتُ القدَر.

قـوالــب الــمــقــالِــب

كان الشاعر – وما زال – ذا شأنٍ كبيرٍ، فهو وزارة الإعلام، وكانت القصائد الشعرية ذات قوالب في غاية الدقة والتوازن، بل والمحتوى أيضاً، فمهما كان الغرَضُ مِن القصيدة ومهما كان بَحْرُها فهي تبدأ بالغزل، حتى لو كانتْ رثاءً أو هجاءً، ومن مقالب هذه القوالب أن أحد فحول الشعراء (جريراً) أنشد قصيدة للخليفة يقول في مطلَعِها:

أتصــحو أم فـؤادُك غـير صــاحِ
عَشِـــيَّة هَـمَّ صَــحْبُك بالـــرَّواحِ

فلم يتمالك الخليفةُ عبدالملك بن مَرْوانَ نفسه، وقال: بل فؤادُك أنت، لكن جريراً أكمل الغزَل، ومن ثم قال في هذه القصيدة مادحاً:

ألســتُمْ خـيرَ مَن رَكِـب المَطـايا
وأَنْـدَى العـــالمينَ بُـــطون راحِ

وهذا البيتُ يُعَدُّ أفضل ما قالت العرب في المدح، فقد جَمَع بين الشجاعة والكرم في بيتٍ واحدٍ، وفي أجمل تصوير.

نعم القوالب مقالبُ في عين المبتدأ، إلا أنها عند الخبراء سمفونية شعرية راقية، تتراقَص معها المشاعرُ في مسرحِ الأوبرا. والمخطوطة العلميةُ موروثٌ كبير لكل البشَريَّة، وليستْ مقالاً صحفيّاً محليّاً يُطرب البعض ولوقت قصير كالشعر النبطي والغنائي الذي لا يلبث أن يغيبَ مع غُروب الشمس التي أشرقت عليه في يوم ملبد بالغيوم.

أصبحت المجلاتُ لا تقبل الأبحاث إلا في قالبٍ مُعَدٍّ مسبقاً، يحتوي

في أغلبه على نفس التصميم، فتبدأ بالملخص فالمقدمة فالطريقة فالنتيجة فالنقاش ثم المراجع ثم الصور والجداول، ويجب الرجوع إلى كل مجلة والتحقق من تصميمها قبل إرسال المقال لها، فلن يكون المحررُ أكثر غلظة منه عندما يرى عدم الاحترام للوائح وأنظمة المجلة المتوفرة في الموقع ويسهل الوُصُول إليها.

تُستخدم القوالبُ لتوحيد المظهر والمخبر بين الأبحاث المنشورة، لتظهر بصورة متشابهةٍ تسهل على القارئ الوُصُول للمعلومة بين سطور البحث بأسرع وقت ممكن، كما أن التحكيم والتغيير والمتابعة في كواليس المجلة يكون أدقَّ وأسرع أيضاً.

ويكون ترتيبُ القالب غالباً على النحو التالي، وكلٌّ منها في صفحات مستقلةٍ (تم التحدث عن كلٍّ منها بشيء من التفصيل):

العنوان: يحوي عنوان البحث، وأسماء المؤلفين، وعناوينهم.

الاعتراف: بأي دعم (إن وُجِد).

الملخص: لكل مجلة قالبها الخاص للملخص، ويتبعه الكلمات الفاتحة.

المقدمة: يحوي المقدمة، وهي الافتتاحية ومُقَبِّلات المقال.

المواد والطريقة: يحوي تفصيلاً كاملاً وشاملاً لمن يودُّ إعادة التجربة.

النتيجة: عرض النتائج بكل تجرُّد وأمانة.

النِّقاش: خلط الماضي بالحاضر والمستقبل.

الإشادة: بمن دعَّم وسانَد وشارَك، ولا تنطبق عليه شروطُ المؤلف.

المراجع: في قالب تحدِّده كلُّ مجلة.

الصور والجداول والرسومات: بكل وضوح مغنٍ عن الكلام.

مع توفر التقنية الحديثة وسهولة كل شيء بالصورة الرقمية وتوفُّر تقنية المتابعة في برامج الكتابة والتحرير، وشبه انقراض للتقديم الورقي للمجلة، إلا أن بعض المجلات ما زالتْ تؤكِّد في قوالبها على أن تكون الأسطرُ بفراغ مضاعف وهوامش جانبية، كل هذا ليتمكَّنَ المحكمُ مِن مراجعة المقال بأريحية تامة، مع المقدرة على كتابة التعليقات بين السطور والهوامش، كما يتم ترقيم الصفحات، بل حتى ترقيم الأسطر في بعض القوالب لتسهيل الوُصُول للتصحيح، كما تُطالب بعض المجلات بشريط معلومات يظهر في جميع الصفحات يحوي مختصرَ العنوان والمؤلف الأول، ولا يزيد عن سطر، وهو تقليد قديم يضمن عدم اختلاط الأوراق في المجلة وعند المحكمين.

أضف إلى ذلك ذكر عدد الكلمات وعدد الرسومات والجداول والأشكال؛ للتأكد دائماً من عدم سقوط أحدها سهواً في المد والجزر بين المجلة والمؤلف، وبين المجلة والمحكمين.

التنقيح والتصحيح

في ريعان شبابي قُبِلَ لي بحثٌ علمي، بل اختِير من ضمن أفضل عشرة أبحاث للمتدربين في كندا، وتم منحي تذاكر وسكناً للمؤتمر السنوي في تخصصنا، والذي تُنظِّمه الجمعية الكندية، تقدَّمْتُ بعدها إلى مجلة الجمعية الكندية بهذا المقال نُزولاً على الالتزام بهذا عند قَبول البحث للتقديم في المؤتمر، ودون أن يراجعه الاستشاري الذي أعمل معه، فقد كنتُ على يقينٍ من قَبول المجلة له، لكن كان الرد مِن المجلة محزناً بقبول مشروط يراعي التصحيح الإملائي واللُّغوي!

تمنيتُ بعدها أنْ كان الرفض من المجلة على أن يكون قبولاً مشروطاً، فكيف بي أخبر الاستشاري أن لغتي الإنجليزية لم تسعفني في كتابة البحث، لكن عندما أخبرتُ الاستشاري الكندي قال لي: أنا أطلُب من بعض أعضاء القسم مراجعة مقالاتي، بل وحتى سكرتيرتي؛ للتأكُّد مِن عدم وقوعي في الأخطاء الإملائية والنَّحْوية.

تنفستُ الصعَداء عندها بعدَ أن قال لي: من الأفضل أن ينتقدك زملاؤك نقداً بنَّاءً من أن ينتقدك المحكِّمون للمجلة، والذين هم بدورهم أفضل وأرحم مِن انتقاد القارئ لك عبر العصور، فأنت تكتب مخطوطةً تبقى مدى الحياة البشَريَّة، وقد يقرؤُها أحفادُ أحفادك.

أخي الباحث، يجب ألا تكونَ اللغةُ حاجزاً أمامك، وتذكَّرْ أن أغلب الأبحاث المنشورة تكون مِن باحثين لا يتقنون عُشر مهارتك في اللغة الإنجليزية، ومع هذا لم يتردَّدوا في النشر، بل منهم مَن يتباهى بلغته الإنجليزية المكسرة، ولا يُعيرها أي اهتمام، وسوف تراهم عاجلاً أم

آجلاً في أكبر المؤتمرات متحدِّثين، وفي أشهَرِ المجلات ناشرين.

يوجد حاليّاً العديدُ من المواقع في الشبكة العنكبوتية، والتي تقوم بالتنقيح والتصحيح اللغوي، بل وحتى الفكري للبحث العلمي، ناهيك عن خدمة تجهيز المقال للمجلة التي يرغب الباحث النشر فيها، مع إعطائه شهادة نجاح للمجلة مع حسن سيرة وسلوك! كل هذا بمبلغ زهيدٍ وخلال وقت قصير، وذلك لكثرة المواقع في هذا المجال مع عرض التخفيضات من فترة لأخرى، بل إن العديد من أعرق المجلات تقوم بهذا أيضاً دون غضاضة، وتذكَّر أن هذا المقال سيتم قراءته مئات المرات بأقل تقدير؛ لهذا لا تبخَسْهُ حق التجمل للقارئ.

تقوم هذه المواقع بِعَدِّ الكلمات أو وضع سعرٍ محدد لكل مجموعة مِن الكلمات؛ لهذا تَجَنَّبْ إضافة ما لم يصحَّحْ من أسماء مؤلفين وعناوين ومراجع، كما أنَّ الموقع يسألك عن التخصص لكي يُرسلَ المقال لأقرب مراجع لديهم في هذا التخصص؛ لهذا قد يكون مِن المفيد سؤال الأصحاب من نفس التخصص عن أفضل هذه المواقع.

أخبِر الاستشاري معك في هذا البحث عن رغبتك في التصحيح في هذه المواقع، فإما أن يبادرَ هو بتصحيحها، أو يقوم بدفع التكلفة، وإذا لم يكنْ لك هذه أو تلك، فقد خانك الحظُّ في اختيار المُشْرِف!

ستكتشف أن أفضل مَن يتحدث الإنجليزية بعد الإنجليز هم العرب، ومع هذا فقد وَضَعُوا أغلال اللغة على أعناقهم، وكبَّلُوا بها تقدُّمهم في الأبحاث والنشر والتقديم في المؤتمرات، بل إن المُضْحِك المبكي قيام بعضهم بإحباط بعض بالتندُّر بلغتهم ونطقهم باللغة الإنجليزية،

وكأنهم يغارون على هذه اللغة أكثر مِن أهلها، أو خوفهم على بعضهم بعضاً من منازلة شكسبير.

مـراجـعـة الـنـظـيـر Peer Review

اتصل بي أحدُ الزملاء، وقال لي: أوَدُّ أن تعذرني، فقد رفعتُ التقرير للمجلة، وأوصيت بعدم قبول بحثك، ولم أودَّ أن أتصل عليك قبل أن أُرسل التقرير، لكي لا تؤثرَ على مصداقية قراري، وقد كنت ممتعضاً جداً ممَّا قمتَ به من بحثٍ، لم يتركْ شاردة ولا واردة في البحث إلا وانتقدها، كنتُ أضحك بشدة أمام هذه الرصاصات القاتلة، لدرجة أن هذا الصديق كان يتوقع أنني غير مبالٍ بقراره؛ لهذا كان يتمادَى في النقد والتهكم على هذا البحث!

وبعد انقطاع الذخيرة من هذا الرشاش الذي لم يتوقفْ، قلت له: ضاحكاً، أنا لم أرسلْ مقالاً لهذه المجلة، ولم أكتبْ هذا المقال، وكلي يقين أنك أخطأتَ، ولم يكن الأجدر أن تبيح بالسِّرِّ الذي اؤتمنتَ عليه، والحقيقةُ التي لم أخبره بها أنني اطَّلَعْتُ على هذا البحث، وقد اعتذرتُ عن مراجعته لانشغالي الشديد!

يقوم المحررُ بإرسال المقال إلى خبراء في مجال البحث؛ ليقوموا بمراجعته، والتأكد منه وملاءمة نشرِه، وهو ما يُعرف بمراجعة النظير، ويكون هذا بسرية تامة مِن الجهتين، فالنظيرُ لا يعلم بالمؤلف، والمؤلفُ لا يعلم بالخبير، وبذلك يتجرد كلٌّ مِن الجهتين من كل شيءٍ قد يؤثر على مصداقيته ومهنيته، صحيحٌ أنه من الصعب – إن لم يكن من المستحيل – التمكُّن دائماً من إخفاء الباحث عن الخبير المراجع، خاصَّة في التخصصات الدقيقة، لكن يجب على المراجع أن يتحرى النزاهة والمصداقية في مراجعته.

وصحيح أن المراجع لا يَحْظَى بأي مقابل مما يُصَعب العمل على المحرر في إيجاد الخبراء المتميزين، بالمقابل يتأخر الباحثُ في نشر بحثه مما قد يفوت الفرصة عليه في تحقيق السبق البحثي؛ حيث إنَّ المحققين للفكرة بعد أن تنشرَ والمقتبسين والمستشهدين ينسبون الفضل لمن نشر أولاً، وليس مَن تقدم ببحثه للنشر أولاً، وتذكر أنَّ رفضك لمراجعة البحوث أو التأخر على المجلة بالرد هو نفس السبب لتأخر نشر أبحاثك.

هؤلاء الخبراءُ يجب ألا يكونوا من طاقم تحرير المجلة، كما يجب ألا يكونوا مِن المشاركين في هذا البحث، ويكون الثقل الكبير في تقييم المقالات على عاتق هؤلاء المراجعين، والذين يجب أن يكونوا صادقين في إرشادهم وتقييمهم، واضعين نُصب أعينهم الأمانة المُلقاة على عاتقهم، وعدم البوح بأي سرٍّ مِن أسرار البحث، وكأنهم أمام الغير لا يعرفون عنه أيَّ شيء، كما يجب أن لا يتزمَّتُوا بآرائهم الشخصية غير الموثقة علميّاً، كما يجب أن يكون هدفُهم الرقي بالبحث العلمي، وتقديم العون للمحرر والمؤلف في إظهار ما لديهم بأجمل حلةٍ، كما يجب أن يعيروا هذا الموضوع كل اهتمامهم بالرد السريع بالاعتذار أو تحمل المسؤولية كاملة خلال المُهلة المقدمة لهم.

قد لا يسلم طبيبٌ مِن تواصل محرر المجلة به طالباً منه تحكيم مقال طبي، كأحد القراء للمجلة، أو كأحد المتخصصين في مجال البحث، وهؤلاء الخبراءُ هم المتذوِّقون لطبق سيُقدَّم للجمهور، فإن لم يكونوا متخصصين في هذا المجال، أو مرتادين لهذا المطعم، فليس من العيب الاعتذار اللبِق، بدلاً من تجرُّع العلقم لإرضاء المحرر، أو

تنـازلاً بالمصداقيـة مجاملـةً لمعدِّ البحـث الـذي قد لا يسلم مـن الانتقاد من الجمهور هو والمحرر بسبب هذه المجاملة.

مراجعـةُ النظيـر هـو مـا يعـول عليـه فـي قبـول المجلـة كمرجـع علمـيٍّ معتَمَـد فـي المؤسسـات والجامعـات والمعاهـد، وتؤخـذ أبحاثهـا بعيـن الاعتبـار لرسـم الخطـط المسـتقبلية، وتغييـر الواقـع للأفضـل، وتقييـم السياسات السابقة، وسبُل تلافي مضاعفاتها.

سـحـب الـبـحـث

أقدمت العالمة اليابانية (هاروكو أوباكاتو) على الانتحار، بعد أن تَمَّ سَحْبُ بحثِها من إحدى المجلات العريقة، بعدما عبر بسلامٍ من بوابة المدققين والمحرر، وصدقه القراءُ عند نشره مطلع عام ٢٠١٤، وتم الإشادة به كأحد الاكتشافات الكبيرة في مجال الخلايا الجذعية، إلا أنه سرعان ما اكتشف زيغُ هذا البحث عند أول اختبار مِن باحثين حاولوا الاعتماد عليه في دراساتهم، من هنا فتح ملف تحقيق في البحث، وتم تجريم (هاروكو) بارتكاب خطأ مهني فادح، دفعتْ حياتها ثمناً غالياً له وبيديها أيضاً.

تقوم المجلاتُ بسحب البحث بعد أن تجد أن هنالك معضلةً في البحث المنشور، والتي قد تؤدي إلى ما يعرف بكرة الثلج؛ حيث إنَّ هذا البحث قد يؤدِّي إلى تسمم أبحاث أخرى، مما قد يَضُرُّ بمستقبل البحث في هذا المجال، ويُعَدُّ سَحْبُ البحث من المجلة أكبر صفعةً يتلقاها الباحث في مسيرته البحثية، وقد يكلفه الكثير من العناء، هذا إذا سَلِم مِن التَّبِعات القانونية.

مع أن سَحْبَ البحوث لا يتجاوز ٢ ٪، إلا أنه قد يصيب أعرق المجلات وأعقدها، وقد يؤدي إلى تسونامي يغرق كل شيء يقف في طريقه، وليس للناجين منه سوى الابتعاد عنه وتجنُّبه، والتحذير منه وزيادة الوعي به وتصويره؛ لكي لا يستنقص أحدُ تبِعاته، ويتوقع أن قيم وأخلاق وقواعد الأبحاث تقبل التحدي أو التجاوز أو التهاون لما يعقبها مِن تبعاتٍ لا تتوقف عند المؤلف، بل تطول مرجعه، وقد

تطول المجلة وتجعل مصداقيتها على المحك أمام قرائها، ولن يشفعَ لهم جميعاً إلا الصدقُ والشفافيةُ والاعترافُ بكل صغيرة وكبيرة، حتى ولو لم يكن لهم علاقة مباشرة بالقضية، والأدهى والأمَرُّ تبرُّؤ أقرب الأقربين لكي لا تتلطَّخَ سُمعتهم وسمعة مراجعهم بأيِّ وصمة عارٍ!

تكرارُ الأبحاث شيء طبيعيٌّ، صحيح أن النشرَ يقوم على قاعدة أساسية وهي إضافة جديدةٌ، فقد يكون الجديدُ بحثاً آخر يُشكك أو قد يُكذب البحث الذي نشر؛ لهذا فإن النشر لا يمثل انتهاء المطاف، ولكن بداية السعي وراء تصديق واستشهاد وشكر وإشادة أو بداية دوامة من النقد والقذف والمحاكمة والعقاب. ليس هذا فحسبُ، بل قد تلحق اللعنة البحثية صاحبَها بعد وفاته عندما لا يكون له حول ولا قوة في الدفاع عن نفسه، ويصبح اسمُه عاراً على جامعته، بل حتى دولته!

إن مراجعة النظير وموافقة المحرر لا تُسقط التهمة عن الباحث، بل كل الباحثين الذين يحملون اسمَ المؤلف في هذا البحث المنشور مُشتركون في ذلك، بل إن المجلات تقوم بمراسلة المراجِع المسؤولة عن هذا البحث وتطلب منها التحقُّق أولاً من هذا البحث؛ مما يجعل المؤلفين بين مطرقة المجلة وسندان المراجع للمؤلف، وهنا تجدر الإشارةُ إلى أن المراجع العلمية من جامعات ومعاهدَ تُقيم كل الحجج على المؤلف لكي تتبرأ من أي تهمةٍ قد تلصق بها، إذا لم يكن ردُّها مقنعاً للمجلة؛ حيث إنَّها تقوم بعد ذلك بتعليق المقال حتى يتم تحكيمُه من جهة محايدةٍ قد تثبت خطأ الباحث ومرجعيته، وبهذا تتسع دائرة العقاب، وهذا ما يؤدي إلى سحب المقال، وإثبات التهمة وتجريم كل مَن له صلة.

يمكنك الرجوع إلى محرّك الأبحاث الشهير Pubmed، وكتابة كلمة: Retraction، أو كلمة: Corrigendum، والتمتع بالعديد من القصص والتجارب التي لم يكتبْ لها النجاح، وتم سَحْبُها من المجلات أو تصحيحها، فالسعيدُ مَن اتَّعَظَ بغيره، ولاحظ أن هذه المقالات قد نشرتْ في أرقى المجلات العلمية، ولا يكاد يَنْجُو منها أحدٌ.

قد يصل الحالُ بالباحث إلى التصفيد بالحديد ودخول السجن، وإفراج مشروط وغرامة مالية، كما كانتْ نهاية بروفسور التخدير الأمريكي الشهير سكوت ريوبن من مدينة بوستن في عام ٢٠١٠، بعد أن اعترف بعدم قيامه بأي تجربة لبحث علميٍّ ونشره لأكثر من ٢٠ بحثاً في أرقى المجلات العلمية، وحصوله على الأموال من العديد من الهيئات الممولة للأبحاث كان ضحيتها ملايين المرضى الذين تغيَّر علاجُهم مِن الآلام بسبب نتائج أبحاث هذا الطبيب!

اعتبر ما قام به أكبر حالات الغش الأكاديمي، وقد قالتْ عنه مجلة ساينتفك الأمريكية: إنه يعادل ما قام به الرئيسُ السابق لسوق الأسهم الأمريكية NASDAQ بتدبير مخطط خداع يوازي ٦٥ مليار دولار!

الـتــسـجـيــل

رُزقتُ بطفلةٍ جميلةٍ في كندا، وعندما أخبرتُ الملحقية قيل لي: يجب أن ترفقَ أوراقاً ثبوتية بتسجيل المولود في كندا، فملأتُ الاستمارة بالكامل للتقديم على وثيقة الولادة، وأخطأتُ في كتابة اسم المولودة، ومِن ثم عدلتُ الأوراق، إلا أنَّ موظف الاستقبال رفض استلام الوثائق حتى تقومَ زوجتي بالتوقيع بجانب التعديل، فطلبتُ منه التحقق من بقية الأوراق لكي لا أعاودَ الرجوع مرة أخرى، فكان لي ما أردتُ.

نعم لَم يَعُدْ مقبولاً أن يُرسلَ أحدٌ مقالاً بحثيّاً مستقبليّاً دون إثبات تسجيله مسبقاً في جهة رسميةٍ تثبت قيامه بهذا المشروع، ومراعاته لكل شروط التسجيل، وقبوله بنشر ذلك على موقع مفتوح للجميع يُوَضِّح كل شيء قبل شروعه في هذه الدراسة، مع التزامه أمام العالم بالنشر مهما كانت النتائج، حدّ هذا بشكل كبير من تبني بنات أفكار غير شرعيين، ودسها في وثائقَ رسمية، في المقابل أثرى المعرفة بنشر العديد من الأبحاث التي لم يثمنها أصحابها، أو لم تجارِ رغباتهم في نهاية المطاف.

تُوفر العديد من المؤسسات اللا ربحية قواعدَ بيانات لكل مَن يَوَدُّ تسجيل أبحاث مستقبلية، ويوجد العديد من هذه المواقع مع سهولة الوُصُول إليها، ولكلٍّ منها معايير وشروط ونصائح وتسهيلات تسجيل وبدون رسوم، وينصح أي باحث بالتقصي عنها في محركات البحث، فهي قد تسهل عليه تسجيل فكرته بمعرفة ما يدور حولها من نقاشات مستقبلية، وتكشف له أفكاراً جديدة تستحق الدراسة، ومنها ما يفتح

المجال للدخول مع مراكزَ أخرى في أبحاث أكبر وأقوى.

يذكر في كل تسجيل عنوان البحث والباحثين، وموافقة لجنة الأخلاق وتفاصيل العينة بمعايير القبول والرفض فيها، والتجربة التي سوف تقام، والنتائج الأولية والثانوية المترقبة، وأسماء الممولين، ومن يتم التواصل معه.

هذا التسجيلُ يُعطي شيئاً من الأسبقية، ومن ثم الأولوية لهذا البحث في النشر على غيره، إذا تم الالتزام بالتواريخ المحددة، كما أنه يُسعف المسجل في تشجيع فريق العمل لديه بسباق الزمن، واحترام التواريخ المتفق عليها، وكذلك للجهة الداعمة أن تُسَلِّم كل التزاماتها.

تتميَّز هذه الأبحاثُ المستقبلية بكونها مَرَّتْ بمخاض عسير، فقد غَرْبَلَتْها لجنة الأخلاقيات ونخلتها هيئة التسجيل، وأَشْهَرَتْها محركات الأبحاث، وتطلع الجميعُ إلى معرفة ما سوف تَؤُول إليه، لهذا يسهل نشرها، بل تتطلع المجلات لخطبة المؤلف لها، والتقدم بنشر البحث فيها، إذا لم تتقدم هي بطلب الزواج منه!

من ضمن ما يلتزم به هذا المسجل التواريخ المتوقعة لإنهاء الدراسة، فكشفه لها سيجعله حريصاً جدّاً على إنهائها قبل أن يسبقه أحدٌ، فيضع تواريخ قريبة ويكون قادراً على إنهاء الدراسة فيها، والرجوع إليها في التحكيم، وهذا أيضاً مفيدٌ؛ حيث إنَّه يكسر الإغراق بقدر ما يكسر الاحتكار والحصر لسوق الأبحاث، وكلاهما يئد المنافسات الشريفة التي تثري المعرفة كمّاً ونوعاً.

صورة بانورامية

في سنتي الثالثة في كلية الطب ذهَبتُ مع أخي للمسجد الكبير في الرياض لصلاة الجمعة، ثم للتسوُّق في المحال القديمة، وبعد الصلاة إذا بتجمع كبير خارج المسجد وأخي يقول: "تعال بسرعةٍ، سيُقام قصاص اليوم"! ذهبتُ معه متردداً، وإذ برَجُلٍ طويل ضخم يُساق مكبلَ الأيدي، معصوب العينين، ثم يناخ كالجمل على قدميه في منتصف الساحة، وما لبث أن قام رجل نحيل قصير – في لمحة بصر – بفصل الرأس عن الجسد لذلك العملاق، قمتُ مِن بعدها على هزِّ أخي الصغير لي: هل أنت بخيرٍ!

فقدتُ الوعي لثوانٍ، وكان للازدحام الشديد الفضل في عدم سقوطي على الأرض، لم أتمالكْ نفسي وطلبتُ مِن أخي أن يسندني حتى أتمكَّنَ من الرجوع للمنزل، وعندما علمتُ أن هذا القصاص كان بذنب تهريب المخدرات خَفَّتْ هذه الصدمة عليَّ، وعندما طال بي العمر وكبرتْ مداركي لخطر المخدرات، وشاهدتُ دموع الوطن على أبنائه المغدور بهم من هؤلاء المروجين؛ تلاشى كلُّ عطف ورحمةٍ وشفقة على هؤلاء المجرمين.

لقد أصبحت الأفلام الوثائقية للجرائم وطرُق اكتشافها والتأكد منها وما آل إليه المجرم الشيء الوحيد الذي يستهويني في التلفاز، ولم تعاودني تلك الدوخة مرة أخرى، لتعلُّمي درساً كبيراً، وهو عدم مشاهدة آخر الفيلم، نعم عندما تصقل خبراتنا وتتوسع مداركنا بالجمع بين الارتفاع للفضاء الشامل والغوص في أدق التفاصيل تَظْهَرُ لنا الحقائق جليةً،

ونجد أن العديد من الأمور الصعبة والمعقدة والمرفوضة أصبحتْ سهلةً وبدهيةً ومتقبلة، فمَن يأتي في منتصف الفيلم لا يستطيع تقبُّل المجريات، بل يكون أصعب وأصعب أن يتقبل أحدٌ الأحكام ولم يعرف الحقائق كاملة، كما كان حال موسى عليه السلام مع ثقته الكاملة بالخضر.

وختاماً وبعد الغوص في محيطات البحث أود أن أطلعك أخي القارئ على صورة بانورامية مرتفعة ترسم أمامك الأبحاث من المهد إلى اللحد، من كونها نطفة جديدة إلى أن ينتهي بها المطاف أحفورة خالدة بعد مرورها بمحطات عدة تتوقف عندها، ومن ثم تكمل مسيرتها للمحطة التي تليها، ولعل من الجميل تشبيه هذه المحطات بصورٍ أوضح تسهل استيعاب ما تمر به الفكرة مِن مراحل تدقيق وتمحيص.

تذكَّرْ أن البحث عبارة عن وثيقة علمية أكاديمية ومرجعية يُعتمد عليها في تقديم خدمة طبية قد يتبعها التزامات مالية ومهنية، أو تكون دليلاً لتشريع دوليٍّ، من هذا المنطلق يجب أن تكونَ تابعةً لمنظومة شرعيةٍ معترفٍ بها، وللتسهيل دعونا ننظُر إلى منظومة السلطات الثلاث عند وجود جريمةٍ؛ حيث يقوم المحققُ الأمين الصادق بتجميع البيانات، يلي ذلك تقديمه لملف القضية بطريقة شرعية إلى القاضي المعين من رئيس الدولة، وبعد أن يستشيرَ الخبراء في هذا الملف يَصْدُر الحكم الذي يستطيع الجميع الاطلاع على ملخصه.

دعونا بشيءٍ من التفصيل الموجز نُقارن بين مسار الأبحاث والجريمة، فكلاهما يقوم على مشكلةٍ يتصدر لها محقق هو الاستشاري وهو الضابط العسكري اللذان قد يستعينان بزملائهما أو مساعديهما في

تجميع الحقائق والاستماع إلى الشهود، وتفككيك وتحليل المشكلة باتباع الطرُق المشروعة، ومن ثم يرفعون أوراقاً مكتملة لمن يفصل فيها، وتدعى مخطوطة عند الاستشاريين، وملف القضية عند الضباط.

القاضي والمحرِّر المعَيّنان من ملك الدولة ومالك المجلة تواليا، وهما مَن بيدهما الفصلُ بعد الاستماع لأهل الحل والربط، المحلفين للقضاء والمحكمين للمجلة، عندما يصدر الحكم يُنشر في صحيفةٍ رسميةٍ للدولة هي المجلة العلمية، ومن ثم تتلَقَّفه بقية مصادر النشر مِن إذاعةٍ وتلفاز بشيء من الإيجاز، مما يوفر تثقيفاً أوسع للمشكلة وطرقاً لحلها، كما تظهر مدى حرص الجميع على التعرُّف على كل المعضلات، وتوفير حلول متزنة ومدروسة لها تحمي المجتمع، وتُلَبّي رغباته في معرفة الحقيقة كاملة، وبهذا تُتقبل كل القرارات ويرحب بها، ويُعلم أن التضحيات والأضحيات التي قدمتْ لم يكن لها غير هذا الحكم العادل المنصف المرضي.

حصلتُ على ساعة يد مِن أحد مطاعم الوجبات السريعة التي دخلتُها مرة واحدة في ريعان شبابي، وقد أهديتُها لأختي الصغيرة ذات الخمس سنوات – هي الآن طبيبة – ففرحتْ بها أيما فرح، فقد كانتْ ذات وصلة إلى الأذن يمكن أن تسمع بها الإذاعة، إلا أن هذه الطفلة البريئة بعد بضع دقائق جاءتْ إليَّ منكسرةً حزينة تقول: "عبدالرحمن، هل سيأتي فيها بيان من وزارة الداخلية؟".

كلي أمل أن يخرجَ الطبيب اليافع مبكراً من طفولته البريئة، والتخوف من هذه الأبحاث الصادقة في حماية المريض، والرقي بالخدمة الطبية محليّاً، بدلاً من استيراد هذه التشريعات وتَبَنّيها دون مراعاة لاحتياجاتنا وخصوصيتنا وأمننا الفكري.

المـــؤتـــمـــرات

قَدّم أحد الأصدقاء في مؤتمر، وذكَر للحضور أن هذا البحث قد قُدِّم لإحدى المجلات، وكله يقين أن أحَدَ الحضور سوف يُقيمه قريباً؛ لهذا يودُّ أن يكون تقديمُه هذه المرة تشويقاً للحضور وبالأخص هذا المحكم، لهذا لا تبخلوا عليَّ بالنصح والسؤال، فسوف أعطيكم وقتاً مستقطعاً مِن تقديمي للقيام بهذا؛ لتساعدوني في عرض المقال على غلاف المجلة، ابتسم الجميع وتعالت الضحكات، كان كلامُه حقيقة لا مناص منها، لكن لم يجرؤُ أحدٌ على البوح بها.

التقديم في المؤتمرات هو الإفصاحُ في صالات العرض لأحدث الموديلات، مع ترويج بالتشويق لما سيدشن في السوق قريباً، فيكون الشغل الشاغل للمتابعين والمهتمين هو ترقُّب اليوم الذي بمقدورهم اقتناء أحدث الموديلات في حياتهم العملية.

كما يساعد هذا التقديمُ على تمحيص الفكرة، وتكرارها، ومراجعتها، والإيمان بها، والاستماع إلى رأي المحكمين في المؤتمر، وما يروج له المنافسون، فالعديد من الحضور متبضعون أو محكمون في المجلات إن لم يكونوا محررين لها، كما أن المستمعين في المؤتمر دليل آخر على جمال الفكرة واستقطابها للقارئين عند نشرها في المجلة، وإذا لم يَحْظَ التقديمُ بحضورٍ جيد فمن البدهي ألا يجد له رواجاً عند النشر، فالمحررون يتطلعون لما يجذب المستمعين لكي يبحثوا عن هذا المقال في مجلاتهم.

تقديمُ البحث في المؤتمر قد لا يقل صعوبةً عن تقديمه لمجلة، فالعديد

من المؤتمرات لديها لجنة علمية تُقَيِّم بها الأبحاث، وتختار المتميزة منها لتُقدَّم في المؤتمر، بل يشترط البعض منها تقديم البحث كاملاً، ومنها من يشترط نشر البحث في مجلة تابعة للجمعية المنظمة للمؤتمر.

من هذه المؤتمرات من يكرم المتميزين في التقديم بالجوائز والإشادة، وبينما يرى الخاسرون أنها مجاملات ومحسوبيات يعلم الفائزُ بها أنها مغامرات تستحق كل المعاناة.

يُنصح الباحثُ في بداية حياته بحضور العديد من المؤتمرات والدورات؛ للتعرُّف عن قربٍ عن هذه المؤتمرات، وطرق التقديم عليها وفيها، كما ينصح بالتقديم مبكراً جدّاً، كما أن العديد من الوظائف الراقية والبرامج التدريبية تضع ثقلاً كبيراً على حضور المؤتمرات والمشاركة فيها عند قبولها للمتقدمين.

تشترط العديد مِن المؤتمرات شروطاً عدة، منها: ألا يسبق نَشْرُ البحث، أو ألا يكون تم تقديمه في مؤتمر سابق، ومن المؤتمرات من يقبل ملخص البحث حتى من غير نتائج؛ على افتراضِ أن الوقت كافٍ للمقدم أن ينهي بحثه قبل الحضور إلى المؤتمر، وفي هذا شيء من المغامرة؛ حيث إنَّ هذا قد يقلل من فرص القبول في المؤتمر.

يتم الإعلان عن المؤتمر بوقت كافٍ يكفل للجنة المنظمة القيام بدورها بأكمل وجه، كما يكفل للمشاركين التقدم له بأوراق المشاركات، وغالباً ما يكون الإعلان عن المؤتمر ومكانة وعدد أيامه قبل انعقاده بسنة، ويذكر في هذا الإعلان المرجعية العلمية، واللجنة المنظمة، واللجنة

العلمية، وكبار المتحدثين، والشركات الداعمة، والموقع الإلكتروني، كما يتم الإعلان عن الموعد الأول والنهائي لقبول الأوراق المشاركة وطريقة التقديم.

لن يكونَ المؤتمر يوماً خالياً مِن فكرة مشابهة أو حتى متطابقة مع ما تبحث فيه، أو تُقَدِّمه، أو تبحث عن مجلة مرموقة لنشره، أو محكم خبير لن يبخل عليك بنصح وإرشاد، وتأكَّدْ من قراءة شروط المؤتمرات جيداً قبل التقديم عليها، كما يجب أن تحضر عشاء المؤتمر للتعرف عن قُرب بالعديد من فطاحل العلم، وتعلم مدى تواضعهم وتلمسهم لمد يد العون للجميع وتوسيع دائرة المعجبين بهم.

التقديم الجميل

في سنوات التدريب في كندا حضرتْ إليَّ طالبة في جامعة مكجيل، وطلبتْ مني أن أراجعَ معها ما سوف تُقَدِّمه في يوم الأبحاث، وبعد أن قدمتُ لها كل النصائح شكرتُها لاختياري في كشف سر هذا البحث قبل تقديمه، لم تلبثْ قليلاً حتى تقدمتْ إلى طبيب آخر بنفس الطلب، كنتُ بعدها ممتعضاً بعدم الاكتفاء بما نصحتها به وبغبائها في نشر موضوعها قبل التقديم؛ حيث إنَّ هنالك جائزة لأفضل بحثٍ، فكيف لبحثها أن يفوزَ وقد كشفتْ أوراقها بالكامل وللجميع، فقد تصبح عُرضة للانتقاد أو التساؤل مِن ذوي المعرفة بالبحث عن نقاط الضعف.

قدمتْ هذه الطالبة بحثها بكل ثبات وجرأة، واتضح لكل واحد أنه قد أسْهَم في هذا التميز بنصيحةٍ يراها أمام عينيه، بل إن أحدهم ألح عليها بسؤال صعبٍ، كانتْ له بالمرصاد بشريحة إضافية قابلها الجميعُ بمزيد من الإعجاب والإشادة، نعم لقد فازت بالجائزة بكل جدارةٍ، وفَرِحَ الجميع لها، مع أن البعض كان على يقين أن السؤال المحرج كان مخططاً له مسبقاً، إلا أن بصماتهم التي ذكرت أنستهم كل شيء.

التقديمُ فنٌّ مِن فنون الحياة، يحتاج إلى تدريبٍ وصقل لهذه المهارة، وليس كرامةً أو موهبة كما يشاع، لهذا الفن قواعدُ منها: أن يكون التقديم على شكل نقاطٍ يتذكرها المقدم، وليست جملاً كاملة يُعيد قراءتها، فالجمهور غالباً ما يقرؤون بأنظارهم أيضاً، فيكونون مشوشين بين القراءة والاستماع، كما أن هذا غالباً ما يؤدي إلى الملل، كمَن يُتابع فيلماً بلغة وترجمة بلغة أخرى متأخرة.

ليس هذا فحسب، بل إنَّ الجُمل تحتاج إلى مساحات أكبر وشرائح أكثر، وهذا مرهق ولا يخلو من الأخطاء؛ لهذا عليك دائماً التأكد من الكلمات ومعانيها إذا كانتْ بلغة أخرى، فقد تقع فريسة سهلة للنقاد والمتربصين، هذا إذا لم تكن المحاضرة مسجلة، بل تأكَّد أيضاً من النطق الصحيح، وذلك بعرض ما تقوم به عدة مرات على بعض الأصدقاء والمشرفين.

القاعدة الذهبية تقول: (نظر الحضور ٦/٦)؛ أي: إنهم يبصرون بشكل طبيعي يوازيه ٦ أسطر لا يتجاوز كل منها ٦ كلمات.

الوقتُ كالسيف إن لم تقطعه قطعك، يظهر هذا المعنى جليّاً في التقديم، فلا تتجاوز الوقت المحدد، فهذا أكبر فشل يقع فيه المبتدئون، وعليه يُستنقصون ولا يرغب أحد في الإنصات لهم إذا ظهر التحذير من رئيس الجلسة؛ لهذا من الأفضل أن تنتهي قبل الوقت لتجعلَ هنالك متسعاً للأسئلة.

كذلك تذكرْ أن عليك الحضور مبكراً للمسرح والترحيب برئيس الجلسة، وتعريف نفسك له بما تحبُّ أن يقدمك به للحضور، كما يجب أن تتأكدَ مِن ظهور التقديم على الشاشة بشكل جيد، وأن الأفلام والأصوات واضحة، ولا تنسَ أن تتأكد من الميكروفون وأنه يعمل بشكل مُسمعٍ لكلِّ مَن في القاعة، وأن حاسبك مشحون بالقدر الكافي ومقطوع الاتصال بالإنترنت، وتأكد من توصيل الصوت إذا كان لديك أفلام أو أصوات تحب إسماعها، هذه الأوقات يجب أن تكون في الحسبان، فسارعْ إليها قبل أن تنتهيَ في دور طويل للمتحدثين، فالقاعدة تقول: مَن يأتِ أولا يخدم أولاً.

المؤثراتُ مكياج المفلسين، فلا تجعل الجمال الطبيعيَّ الأخاذ لموضوعك مختفياً خلف قناع مهرج، فَتفْقِد المادة العلمية روحها، وتصبح تهريجاً لكوميديا واقفة، اجعلْ صورتك ناصعةً في كلماتك المكتوبة؛ لهذا يفضل اللون الأسود لكلمات مشرقة في خلفية بيضاء، فهذا يبرز صورتك بأعلى دقة.

تغَيُّر الألوان والصياغة وحجم الخط يشتت المتابعين للشرائح وفي الشريحة الواحدة (يزغلل) النظر، ويثور صداع الشقيقة، فتأكد أن العنوان متطابقٌ في الشرائح المتتالية حجماً ولوناً، وكأنه لا يتحرك مع تغير الشرائح.

يتمتع برنامج البور بوينت في حاسبات الماك بعدة خصائص في غاية الجمال، ومنها أنها تعرض للمقدم الشريحة الظاهرة وما تحتها من نقاطٍ مهمةٍ لا يرغب في إظهارها المتحدث، فتسحر المستمعين بما لدى المحاضر من إلمام واسع بالموضوع، كما توجد بها الشريحة التالية، وبهذا يستطيع المقدم التمهيد للشريحة قبل أن يراها أحدٌ، فيَتَشَوَّق الحضور، فليس هنالك أتعس من الانقطاع ترقباً لما يظهر للمستمعين من شريحة، وأتعس منه التمهيد لشريحة خاطئة.

بالإضافة إلى وجود مؤقتٍ يوضح الوقت من بداية التقديم، ويمكن معرفة بقية الشرائح المتبقية وعددها، وبهذا يستطيع المقدمُ تدارُك الوقت بدون أن يبخس كل شريحة حقها، وتذكر أن بعض المؤتمرات تشترط استخدام حاسب آلي واحد، ولا تسمح بإيصال حاسبات المقدمين.

تَمَرَّسْ على نبرة صوت مختلفة، فتواصُل الكلمات بسرعة متفاوتةٍ يُجَدِّد الانتباه لدى الحضور، وكأنهم أمام قصةٍ محبوكة يتطلع الجميعُ إلى ما سوف تؤول إليه أحجيتها، تجنب النبرةَ الواحدةَ وكأنك صوتٌ آلي. التَّكْرارُ لبعض الكلمات صوتياً منبهٌ للجمهور، ولكن الإكثار منه منفِّرٌ لهم، لا تتكلف الكلمات الأرستقراطية وتكلَّمْ بلغة بسيطة بطيئة مُفْعَمة بالمشاعر الصادقة غير المتكلفة.

تذكر أن التنوُّع بلا تكلفٍ ولا تصنُّعٍ يجذب الانتباه أكثر، قد يكون السكوتُ بعض الشيء خاصة بعد ذكر مشكلة البحث أو عند الاستماع للسؤال من الجمهور دون مقاطعة شيءٌ من الحكمة.

استخدم الصورَ والجداولَ والأفلام لتساعدَ على التقليل من الكتابة، وتعطي بُعداً آخر أعمق للموضوع، وتذكر أنَّ: (ما زاد عن حدِّه انقلب إلى ضِدِّه)، خاصة الأفلام؛ فهي كالملح، يتمالح بها التقديم، ولكن كثرتها يرفع الضغط، لا تستخدم التعليق الصادر مِن الأفلام فهذا يستنقص المقدِّم، بل قُم بشرحِه بنفسك والتشويق له، وكأنك تتعايشه لحظة بلحظة، تجنب عرض الفيلم كاملاً، واكتفِ بمقاطعَ متتابعة سلسة.

هناك العديدُ من المهارات في التقديم والتي لا يتسع الوقت ولا المكان لها؛ مثل: تدريب الحنجرة، ولغة الجسد، وأسر المستمعين، والهندام، والرد على السؤال، وغيرها من مهارات الإلقاء التي تتطلب التدريب والممارسة والتعلم، ولها دورات فلا تَحْرِمْ نفسك منها، تذكَّرْ أن المقدمين أكثر الناس مَكاسباً.

يتخوَّف البعضُ مِن سؤال المستمعين، ويفضل أن يجلسَ دون أن يستفسرَ أحدٌ عما قال؛ خوفاً من ألا يستطيع الإجابة، أو تكون إجابته خاطئة، أو أن المستمع يود الإيقاع به والتشكيك في نتائجه، ولكن في الحقيقة الأمر عكس ذلك تماماً؛ فلا يُسأل إلا مَن أبدع في التقديم، وأسر العقول برجاحة منطقة، فهم يتطلعون لعفويته في الإجابة؛ ليزدادَ رونقاً وجمالاً أو تمحيصاً بين المقدمين لمعرفة أجدرهم في حصد الجائزة.

إذا لم يتم سؤالك، فهذا إما لكون الموضوع غير مهمٍّ، أو تقديمه لم يرقَ لتطلعات المستمعين، فهو بكل بساطة كعرض البضاعة للبيع، ومن رواج العرض تقدُّم السائلين بالاستفسار عن السعر والصناعة والضمان، فكن حريصاً على الترحيب وتثمين كل سؤال بالابتسامات والكلمات الشاكرة مع بعض المزاح، ولا تستنقص أي سؤال، وتوقع أن "خلف كل استفهام شيء هام".

أذكِّر أنك تتشوق لأي تواصل معك في فترة الاستراحة أو عبر البريد الإلكتروني لإثراء الفكرة بنقاش منفرد. لا تنسَ أن تختتمَ التقديم بعبارات الشكر والتقدير على حسن الاستماع، وكم أنت مدين لكل مَن أسهَم معك في خروج هذا البحث بهذه الصورة، وكم أنت متشوق لحل العديد من الأحجيات في هذا البحث، والتي قد يتم عرضها في المقال المنشور قريباً.

كل هذا تسويق للمقال الذي سوف يحصد العديد من القراء، وبهذا ترفع من قيمة أسهمك في بورصة الأبحاث وعشق المجلات لك، وتلهف المستمعين إلى ما سوف ينزل باسمك للأسواق.

الجمعيات العلمية

بعد رُجوعي من كندا بسنتين، سألتُ الله الخيرة، وتقدمتُ لانتخابات مجلس إدارة الجمعية، وكنتُ أتوقع أن لديَّ مِن النشاط والحيوية ما يُثري هذه الجمعية، وأنني لم أعدْ مبهماً أمام أعضاء الجمعية، ولكن كانت الفاجعة أنني لم أحصلْ على ترشيح يؤهلني لدخول المجلس، وبقدر ما حزنتُ بقَدْرِ ما وعيت حقيقة أن هذه الجمعية عملٌ تطوعيٌّ، ومن الرياء الاقتصار على بذل الخير فقط من كرسي المجلس.

شاركتُ المجلس الجديد بالدعم والدعاء، وفي الانتخابات التالية لم يحالفني الحظ بدخول المجلس، بل صوت الأعضاء لي بالأغلبية على رئاسة الجمعية، وبعد انقضاء فترة المجلس تم التصويت لي برئاسة ثانية، كانتْ هذه المرة بالإجماع، فكنتُ الرئيس الوحيد لدورتين متتابعتين؛ لأن شروط الجمعيات لا تسمح بدخول المجلس مرتين، علمتم كيف كانت خيرة عدم دُخولي للمجلس المرة الأولى!

مَن يَعِشْ وحيداً يَمُت وحيداً، لا يخلو أي تخصص طبي مِن أن يكون تحت مظلة جمعية علمية إن لم يكنْ تحت أكثر من مظلة، وتقوم هذه الجمعياتُ على رسوم الاشتراكات مِن الأعضاء وبعض الدعم مِن الجهة المسجلة لها، ويكون لها مجلسُ إدارة مِن التخصص نفسه، يتم انتخابهم من أعضاء الجمعية المسجلين، وتمثل هذه الجمعيات تخصصها في المحافل العالمية، وتبرز ما وصلتْ إليه الدولة من إنجازات علمية وبحثية، كما تقوم هذه الجمعيات برفع نصائحها وخبراتها للجهات المختصة؛ مثل: وزارة الصحة والجامعات والمجلس الصحي وغيرها.

وغالباً ما تُقيم هذه الجمعيات مؤتمراتٍ دوليةً كبيرةً تدعو إليها كبارَ المتحدثين من مختلف الدول الشقيقة والصديقة، ليقدموا خبراتهم ونصائحهم وابتكاراتهم، وهي أيضاً محفل للتعارف والتزاوُج والتلاقُح بين الأفكار والمشاريع، وبناء الجسور لتبادل الخبرات، وفتح الطريق لتدريب الأطباء الجدد في مراكزَ متقدمةٍ، كما تَعرض الشركات الداعمة بضاعتها، وتسوق لها، وتقيم الدورات التدريبية، وتدشِّن منتجها الجديد.

ويُنصح كل طبيبٍ أن يسجلَ في هذه الجمعيات، فهي أهم مجال تطوُّعي في تخصص الطبيب، كما أن هذه الجمعيات هي حلقة الوصل والتعارف للأطباء في هذا المجال، فلا غنًى لأي طبيب عن زميله في هذا التخصص، كما أن هذه الجمعيات تقوم بنشر المعرفة في تخصصها للمجتمع في مجلة تثقيفيةٍ موثقة بخبراء متميزين، بعيداً عن الدعاية والمبالغة التي لا يكاد يسلم منها مقال صحفي.

وتذكَّرْ أن الأقران يخجلون من بعضهم أكثر من خجلهم من أنفسهم، كما أن كل جمعية تقوم بنشر مقالاتها البحثية في مجلتها العلمية، وهي غالباً ما تكون معتمَدة من الجامعات والمستشفيات في احتساب البدلات والترقيات.

لهذه الجمعيات لقاءاتٌ في المدن الكبيرة بشكل دوري، تكون شهريةً في أغلبها، كما تقوم بمؤتمرات وندوات ودورات في مجال تخصصها تَعرض فيها ما توصلتْ إليه الجمعيةُ مِن إنجازاتٍ، كما يكون لها اجتماع لجمعيتها العمومية على هامش المؤتمرات الكبيرة، يَعرض فيها أعضاء مجلس الإدارة ما يقوم به المجلس من نشاطات.

تقوم قراراتُ الجمعيات بالأغلبية في مجلس إدارتها وفي اجتماعاتها العمومية، وهي دليلٌ واضح على مدى النضج العقلي عند الأعضاء، فبينما يقاتل ويستميت البعض مِن أجل آرائهم، فإن منهم مَن يقبل نتيجة التصويت، ومنهم مَن يشكك ويساوم، وقد ينسحب عند أول منعطف يخالف توجهاته؛ لهذا تكون الجمعياتُ مدرسةً لصقل مواهب الأعضاء في تقبل الرأي الآخر واحترامه، وهذا معنى الديمقراطية التي يجهلها الكثير، كما أن نظام التصويت في الانتخابات لمجلس الإدارة هو المحكُّ الحقيقيُّ لتقبل أعضاء الجمعية لأفكار وخطط وسبل التطبيق التي يطرحها كلُّ عضو عند دخوله لمعترك الانتخابات.

هذه الجمعياتُ منابر للأطباء في تقديم مواهبهم وآرائهم ومقترحاتهم بكل حرية؛ حيث إنَّها تكفل للجميع حقوقهم الأدبية، فحريةُ الرأي في التقديم والانتقاد والمداخلة والاعتراض يجب أن تكونَ تحت عباءات الاحترام والتقدير للأشخاص، وأغلب الجمعيات تتقيد بحديث المصطفى عليه الصلاة والسلام: ((مَنْ لَمْ يَرْحَمْ صَغِيرَنَا، وَيَعْرِفْ حَقَّ كَبِيرِنَا، فَلَيْسَ مِنَّا))، فالطبيبُ الصغير في هذه الجمعيات يُرحم مِن أعمال الجمعية الشاقة، ويُشجع على التقديم والمداخلة، ويعطى الجوائز على أبحاثه وتقديمه ونشره لها، وفي المقابل تقوم الجمعيات بتقديم كبار الجمعية في الصفوف الأولى للمؤتمرات، وفي اجتماعاتها العلمية، وتستعين بآرائهم وخبراتهم في مجال التخصص.

التعريب والتعذيب

نصحني أحدُ الأحبة بخوض غمار تجربة جديدة في أول أيامي في السعودية بعد عودتي من السفر، وهي تعريبُ كتاب طبيٍّ، لقد عزَف على وترٍ حساسٍ، فكم أنا تواقٌ لليوم الذي أرى فيه الطب لدينا يدرس بلغة القرآن!

لم أكنْ لأَتَرَدَّد، فتقدمتُ لقسم الترجمة بطلب ترجمة الكتاب المعتمَد لطلبة الطب، لم أكن أعلم أن رجلي قد تزحلقتْ في نفقٍ مظلمٍ من البيروقراطية والتحديات، ناهيك عن جهلي التام بها، مع جهلي باللغة العربية وكلماتها الطبية وقواعدها الفقهية، لكن رُوح المغامرة والتعطش لتقديم شيءٍ لبلدي ولهذه اللغة التي أعشقها كان بالمرصاد خلفي، قاضياً على أي تململ أو تفكير في الانسحاب.

اخترتُ الكتاب المعتمد لطلبة الطب؛ كونه سيجد رواجاً، ولكونه أبسط لغة، وأقل صفحات، لكن هذا يتطلب موافقة القسم الذي شكل له لجنة لم يسبقْ لها البت في مِثْل هذا، فشرعتُ في وضع اللوائح لمثل هذا العمل مما أخَّر الموافقة، ولك بعدها أن تتخيل الصعاب حتى وصل الخطاب لمركز الترجمة في الجامعة الذي بدوره يتطلب اجتماعاً للجانه، والتأكد من قرارات اللجان في الوحدة والقسم والكلية، ومن محضر مجالسها.

بعد هذا تم الرفع للناشر بطلَب الموافَقة على الترجمة، كل هذا التعقيدِ لم يَزِدْني إلا إصراراً على إكمال الطريق الذي لم أعلمْ له نهاية.

اشتريتُ كتاب المعجم الطبي الموحد، وحصلتُ معه على أسطوانة تعريفية به، وقد سهل هذا المعجم عليَّ العمل أكثر وأكثر، بل بعد هذا اكتشفتُ موقعاً في الشبكة العنكبوتية تابعاً لمنظمة الصحة العالمية يوجد فيه هذا المعجم، كان كل خيط ألمسه يكشف لي خيوطاً أخرى متشابكة كبيت العنكبوت، سهَّلَتْ مِن افتراس الترجمة لي.

بعد أن تناصفت الترجمة لهذا الكتاب، حصلتُ على الموافَقة النهائية من مركز الترجمة، وكنتُ أشغل وقت فراغي بالترجمة، ناهيك عن بعض السويعات المختزلة من النوم والسوق والأهل، حتى في العيادة والعمليات، وفي الدقائق المعدودة بين الحالات.

راجعتُ الكتاب عدة مرات، وفي كل مرة أستغرب الأخطاء وتعجُّلي في التسليم، وطلبتُ مِن أحد الأطباء السوريين مراجعة الكتاب، وقد أثنى على ما قمتُ به، إلا أنني راجعتُ مراجَعتَه عدة مرات قبل أن يطمئن قلبي لتسليم الكتاب.

لم يكن كل هذا إلا منتصف الطريق؛ حيث إنَّ المركز يقوم بإرسال الكتاب لمحكِّمين، قد لا يكون لهم ناقة ولا جمل في الترجمة، فكيف لفاقدِ الشيء أن يعطيه؟! بل منهم من لم يَطلع على لوائح الترجمة في المركز، والذين صدموا أن المردود المالي على مراجعتهم لم يكن مجزياً أو جذَّاباً.

وبعد رجوع الكتاب من المحكمين قمتُ بإجراء التعديلات المقترحة، ومن ثم الانتظار مليّاً لمراجعة محكمين آخرين لما قمتُ به من انصياع أو تحفظ على رأي المحكمين.

بعد ذلك رَفع مركز الترجمة للمجلس العلمي طلبَ إقرار الترجمة، والذي بدوره أخذ ما شاء من الوقت والاجتماعات، حتى أقر الكتاب للترقية وللمطبعة مع مكافأة مالية مُحزِنة مُخْجِلة، لم يكن مشوار الكتاب في المطبعة أسرع ولا أسهل منه في المجلس العلمي ومركز الترجمة، وبعد صدور الكتاب تجاوزت المدة الزمنية سنتين كانتْ كافية لصنع صاروخ للقمر!

لقد أشعلتْ هذه التجربة ناراً في قلبي، وها أنت أخي القارئ تسطلي بنارها في قراءتك لهذا الكتاب، كما كانتْ كتبي الأربعة السابقة وربما اللاحقة بنفس الأسلوب الدرامي المضحك، والأكاديمي المسلي، والليبرالي المحافظ.

لكل كتابٍ قصة، ولكل قصة بصة، هذه البصة هي نظرة متفائلة أن يكون للغتنا العربية أمجاد في عصرنا هذا.

ذكرتُ هذه القصة بشيء من التفصيل؛ لكي يكون فيها توضيحٌ لخطوات التقديم على الترجمة والتنبؤ بالصعاب والملابسات على المبتدئ في هذا المجال، ولكي أَسْلَم من الاتصالات من بعض الإخوة السائلين عن تجربتي في الترجمة.

أ.د. عبدالرحمن بن عبدالله حجر

أستاذ دكتور بجامعة الملك سعود
مدير مركز الملك عبدالله التخصصي للأذن
رئيس الجمعية السعوديه للأنف والاذن والحنجرة
المشرف على كرسي الأمير سلطان للإعاقه السمعيه وزراعة السماعات
إستشاري ضعف السمع وزراعه القوقعة
زميل الكليه الملكية الكنديه للأنف والأذن والحنجرة
http://faculty.ksu.edu.sa/drhagr

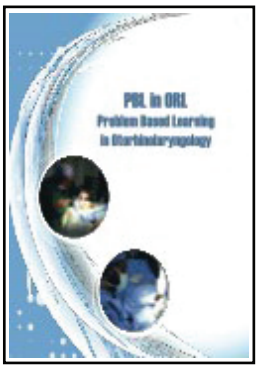

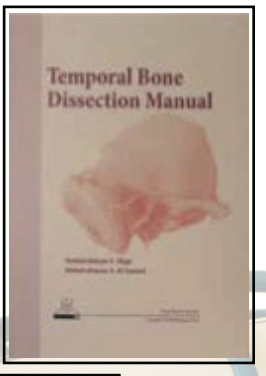

مركز الملك عبدالله التخصصي للأذن
K A E S C

كرسي الأمير سلطان
لأبحاث الإعاقة السمعية وزراعة السماعات